من كليات رسائل النور

مرقاة السنة
وترياق مرض البدعة

بديع الزمان
سعيد النورسي

ترجمة
إحسان قاسم الصالحي


مرقاة السنة
وترياق مرض البدعة



اسم الكتاب: مرقاة السنة وترياق مرض البدعة
اسم المؤلف: بديع الزمان سعيد النورسي
اسم المترجم:إحسان قاسم الصالحي
اسم المطبعة: مطبعة الحوادث- بغداد- العراق
الطبعة : الأولى – ١٩٨٨م

من كليات رسائل النور

مرقاة السنة
وترياق مرض البدعة

تأليف
بديع الزمان سعيد النورسي

ترجمة
احسان قاسم الصالحي

اللَّمعة الحاديةَ عَشْرة

مرقاة السُّنّة وترياق مرض البدعة

المقام الأول لهذه الآية عبارة عن «منهاج السنة»

والمقام الثاني هو «مرقاة السنة»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٨-١٢٩)

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١).

سنبيِّن «إحدى عشرة» نكتة دقيقة، بيانًا مجملًا، من بين مئات المسائل الدقيقة التي تتضمَّنها هاتان الآيتان العظيمتان.

النكتة الأولى

قال الرسول ﷺ: «**من تَمسَّك بسُنَّتي عند فَسادِ أُمَّتي فله أجرُ مِئةِ شَهيدٍ**»(١). أجل، إنَّ اتِّباعَ السُّنّة المطهرة لهو حتمًا ذو قيمة عالية، ولا سيما اتِّباعها عند استيلاء البدع وغلَبَتِها، فإن له قيمةً أعلى وأسمى، وبالأخص عند فساد الأمة، إذ تُشعر مراعاة أبسط الآداب النبوية بتقوى عظيمة وإيمان قوي راسخ؛ ذلك لأن الاتّباعَ المباشر للسُّنّة المطهَّرة يذكِّر بالرسول الأعظم ﷺ، فهذا

(١) الطبراني، المعجم الأوسط ٥/ ٣١٥؛ ابن عدي، الكامل ٢/ ٣٢٧؛ البيهقي، الزهد ص ١١٨؛ أبو نعيم، حلية الأولياء ٨/ ٢٠٠؛ المنذري، الترغيب والترهيب ١/ ٤١؛ المناوي، فيض القدير ٦/ ٢٦١.

التذكر الناشئ من ذلك الاتّباع ينقلب إلى استحضار الرقابة الإلهية، بل تتحوَّل في الدقائق التي تُراعى فيها السُّنّة الشريفة أبسطُ المعاملات العرفية والتصرفات الفطرية -كآداب الأكل والشرب والنوم وغيرها- إلى عمل شرعي وعبادة مُثابٌ عليها؛ لأن الإنسان يلاحظ بذلك العمل المعتاد اتِّباعَ الرسول ﷺ، فيتصور أنه يقوم بأدب من آداب الشريعة، ويتذكر أنه ﷺ صاحبُ الشريعة، ومن ثم يتوجه قلبُه إلى الشارع الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى، فيغنم سكينةً واطمئنانًا ونوعًا من العبادة.

وهكذا، في ضوء ما تقدَّم فإن مَن يجعل اتِّباع السُّنّة السَّنية عادتَه، فقد حوّل عاداتِه إلى عبادات، ويمكنه أن يجعل عمرَه كلَّه مُثمِرًا، ومُثابًا عليه.

النكتة الثانية

لقد قال الإمام الرباني أحمد الفاروقي رحمه الله:

«بينما كنت أقطع المراتب في السَّير والسلوك الروحاني، رأيت أنَّ أسطع ما في طبقات الأولياء، وأرقاهم وألطفَهم وآمنَهم وأسلمَهم هم أولئك الذين اتَّخذوا اتباع السُّنَّة الشريفة أساسًا للطريقة، حتى كان الأولياءُ العوام لتلك الطبقة يظهرون أكثر بهاءً واحتشامًا من الأولياء الخواص لسائر الطبقات».

نعم إنَّ الإمام الربانـيَّ مجدِّدَ الألف الثاني ينطق بالحق، فالذي يتمسَّك بالسُّنّة الشريفة ويتَّخذها أساسًا له، لهو أهلٌ لمقام المحبوبية في ظلِّ حبيب الله ﷺ.

النكتة الثالثة

عندما كان يسعى هذا السعيدُ الفقير إلى الله، للخروج من حالة «سعيد القديم» ارتجَّ عقلي وقلبي وتدحرجا ضمن الحقائق إزاء إعصار معنوي رهيب، فقد شعرتُ كأنهما يتدحرجان هبوطًا تارة من الثريا إلى

الثرى وتارة صُعُدًا من الثرى إلى الثريا، وذلك لانعدام المرشد، ولغرور النفس الأمارة.

فشاهدتُ حينئذ أن مسائل السُّنّة النبوية الشريفة بل حتى أبسطَ آدابها، كل منها في حكم مؤشر البوصلة الذي يبين اتجاهَ الحركة في السفن. وكلٌّ منها في حكم مفتاح مصباح يضيء ما لا يُحصر من الطرق المظلمة المضرة.

وبينما كنت أرى نفسي في تلك السياحة الروحية أرزحُ تحت ضغط مضايقاتٍ كثيرة وتحت أعباءِ أثقالٍ هائلة، إذا بي أشعر بخِفّة كلما تتبَّعتُ مسائلَ السُّنّة الشريفة المتعلقة بتلك الحالات، وكأنها كانت تحمل عني جميعَ الأثقال وترفع عن كاهلي تلك الأعباء. فكنت أنجو باستسلام تامٍّ للسُّنّة من هموم التردد والوساوس مثل: «هل في هذا العمل مصلحة؟ تُرى هل هو حق؟». وكنت أرى متى كففتُ يدي عن السُّنّة تشتد

موجاتُ المضايقات وتكثر، والطرقُ المجهولة تتوعّر وتغمض، والأحمالُ تثقل.. وأنا عاجزٌ في غايةِ العجز ونظري قصير، والطريقُ مظلمةٌ. بينما كنت أشعر متى اعتصمتُ بالسُّنّة، وتمسكتُ بها، تتنوَّر الطريقُ من أمامي، وتظهر كأنها طريقٌ آمنة سالمة والأثقالُ تخِفُّ والعقبات تزول.

نعم، هكذا أحسستُ في تلك المرحلة فصدّقتُ حُكمَ الإمام الرباني بالمشاهدة.

النكتة الرابعة

غمرتني -في مرحلة ما- حالةٌ روحية نبعت من التأمل في «رابطة الموت» ومن الإيمان بقضية «الموت حق»، ومن طول التفكر بزوال العالم وفنائه. فرأيت نفسي في عالَم عجيب، إذ نظرتُ فإذا أنا جنازةٌ واقفة على رأس ثلاثِ جنائزَ مهمة وعظيمة:

الأولى: الجنازةُ المعنوية لمجموع الأحياء التي لها ارتباطٌ بحياتي الشخصية، والتي ماتتْ ومضت ودُفِنت في قبر الماضي.. وما أنا إلّا كشاهدِ قبرِها موضوعٌ على جثتها.

الثانية: جنازةٌ عظيمة تطوي مجموع أنواع الأحياء المتعلقة بحياة البشرية قاطبة، والتي ماتت ودُفنت في قبر الماضي الذي يَسَعُ الكرة الأرضية.. وما أنا إلّا نقطة تمحى عاجلًا ونملة صغيرة تموت سريعًا على وجه هذا العصر الذي هو شاهد قبر تلك الجنازة.

الثالثة: الجنازةُ الضخمة التي تطوي هذا الكون عند قيام الساعة، وحيث إن موته عندئذ أمر محقَّق لا مناص منه، فقد أصبح في نظري في حكم الواقع الآن، فأخَذَتِ الحيرةُ جوانب نفسي، وبُهتُّ من هول سَكرات تلك الجنازة المهولة، وبدت وفاتي - التي هي الأخرى آتيةٌ لا

محال- كأنها تحدث الآن، فأدارت جميعُ الموجودات وجميعُ المحبوبات ظهرها لي ومضت، وتركتني وحيدًا فريدًا، مثلما جاءت في الآية الكريمة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ...﴾ . وأحسست كأن روحي تُساق إلى المستقبل المُمتدِّ نحو الأبد الذي اتخذ صورةَ بحر عظيم لا ساحل له.. وكان لا بدَّ من إلقاء النفس في خضمّ ذلك البحر العظيم طوعًا أو كرهًا.

وبينما أنا في هذا الذهول الروحي، والحزنُ الشديد يعصِر قلبي، إذا بمَدد يأتيني من القرآن الكريم والإيمان. فمدّتني الآية الكريمة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ حتى غدت هذه الآيةُ بمثابة سفينة أمان في مُنتهى السلام والاطمئنان. فدخلَت الروحُ آمنةً مطمئنة في حمى هذه الآية الكريمة.. وفهمتُ في حينها أن هناك معنًى غير المعنى الصريح

لهذه الآية الكريمة، وهو المعنى الإشاري. فلقد وجدتُ فيه سلوانًا لروحي، حيث وهب لي الاطمئنان والسكينة.

نعم، إن المعنى الصريح للآية الكريمة يقول للرسول الكريم ﷺ: «إذا تولَّى أهلُ الضلالة عن سماع القرآن، وأعرضوا عن شريعتك وسُنَّتك، فلا تحزن ولا تغتمّ، وقل حسبي الله، فهو وحدَه كافٍ لي، وأنا أتوكل عليه؛ إذ هو الكفيل بأن يقيّضَ مَن يتبعني بدلًا منكم، فعرشُه العظيم يحيط بكل شيء، فلا العاصون يمكنهم أن يهربوا منه، ولا المستعينون به يظلون بغير مَددٍ وعونٍ منه».

فكما أن المعنى الصريح لهذه الآية الكريمة يقول بهذا، فالمعنى الإشاري للآية الكريمة يقول: «أيها الإنسان، ويا من يتولى قيادةَ الإنسان وإرشادَه؛ لئن ودَّعتك الموجوداتُ كلُّها وانعدمت ومضتْ في طريق الفناء.. وإن فارقَتك الأحياءُ وجرت إلى طريق الموت.. وإن

تركك الناسُ وسكنوا المقابر.. وإن أعرض أهلُ الغفلة والضلالة ولم يصغوا إليك وتردَّوا في الظلمات.. فلا تُبال بهم، ولا تَغتمّ، وقل: حسبي الله، فهو الكافي، فإذ هو موجودٌ فكل شيء موجود..

وعلى هذا، فإن أولئك الراحلين لم يذهبوا إلى العدم، وإنما ينطلقون إلى مملكة أخرى لرب العرش العظيم، وسيرسل بدلًا منهم ما لا يُعدُّ ولا يُحصَى من جنوده المُجنَّدين.. وإن أولئك الذين سكنوا المقابر لم يَفنَوا أبدًا، وإنما ينتقلون إلى عالم آخر، وسيَبْعثُ بدلًا منهم موظَّفين آخرين يَعمُرون الدنيا، ويَشغَلون ما خلا من وظائفها.. وهو القادر على أن يُرسل من يُطيعه ويسلك الطريق المستقيم بدلًا ممَّن وقعوا في الضلالة من الذاهبين..

فما دام الأمر هكذا، فهو الكفيلُ، وهو الوكيل، وهو

البديل عن كل شيء، ولن تعوّض جميعُ الأشياء عنه، ولن تكون بديلًا عن توجّه واحد من توجهات لطفه ورحمته لعباده..

وهكذا انقلبت صورُ الجنازات الثلاث التي راعتني بهذا المعنى الإشاري إلى شكل آخر من أشكال الأُنس والجمال وهو: أنَّ الكائنات تتهادى جيئةً وذهابًا في مسيرة كبرى، إنهاءً لخدمات مستمرة، وإشغالًا لواجبات مجدَّدة دائمة، عبر رحلة ذات حكمة، وجولة ذات عبرة، وسياحة ذات مهام، في ظِل إدارة الحكيم الرحيم العادل القدير ذي الجلال، وضمن ربوبيته الجليلة وحكمته البالغة ورحمته الواسعة.

النكتة الخامسة

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٣١) تعلن هذه الآية العظيمة إعلانًا قاطعًا عن

مدى أهمية اتباع السُّنّة النبوية ومدى ضرورتها.

نعم، إن هذه الآية الكريمة أقوى قياسٍ وأثبتُه من قسم القياس الاستثنائي، ضمن المقاييس المنطقية، إذ يرد فيه على وجه المثال: «إذا طلعت الشمسُ فسيكون النهار». ويرد مثالًا للنتيجة الإيجابية: «طلعت الشمس فالنهار إذن موجود». ويرد مثالًا للنتيجة السلبية: «لا نهار فالشمس إذن لم تطلع». فهاتان النتيجتان -الإيجابية والسلبية- ثابتتان وقاطعتان في المنطق.

وكذلك الأمر في الآية الكريمة، فتقول: إنْ كان لديكم محبةُ الله، فلا بُدَّ من الاتباع لـ«حبيب الله». وإن لم يكن هناك اتباع، فليس لديكم إذن محبةُ الله. إذ لو كانت هناك محبةٌ حقًا فإنها تولد حتمًا اتباع السُّنّة الشريفة لـ«حبيب الله».

أجل، إن من يؤمن بالله يُطيعُه. ولا ريب أن أقصرَ

طريق إليه وأكثرَها قبولًا لديه، وأقومها استقامةً -ضمن طرق الطاعة المؤدِّية إليه- لهي الطريق التي سلكها وبيَّنها حبيبُ الله ﷺ.

نعم، إن الكريم ذا الجمال الذي ملأ هذا الكون بنعَمه وآلائه إلى هذا المدى، بديهي -بل ضروري- أن يطلب الشكر من ذوي المشاعر تجاه تلك النِعم.

وإن الحكيم ذا الجلال الذي زيّن هذا الكونَ بمعجزات صنعته إلى هذا الحد، سيجعل بالبداهة من هو المختارُ الممتاز من أرباب الشعور مخاطبًا له، وترجمانًا لأوامره، ومبلّغًا لعباده، وإمامًا لهم.

وإن الجميل ذا الكمال الذي جعل هذا الكون مَظهَرًا بما لا يعدُّ ولا يُحصى لتجليات جماله وكماله سَيهبُ بالبداهة لمن هو أجمعُ نموذج لبدائع صنعته، وأكملُ مَن يُظهر ما يحبُّه ويريد إظهاره من جمالٍ وكمال

وأسماء حسنى.. سَيهبُ له أكملَ حالة للعبودية جاعلًا منه أسوة حسنة للآخرين ويحثهم لاتباعه، ليُظهرَ عندهم ما يماثل تلك الحالة اللطيفة الجميلة.

الخلاصة: أن محبة الله تستلزم اتباعَ السُّنّة المطهرة وتنتجُه. فطوبى لمن كان حظُّه وافرًا من ذلك الاتّباع. وويل لمن لا يَقدُر السُّنّة الشريفة حقَّ قدرِها فيخوض في البدع.

النكتة السادسة

قال الرسول ﷺ: «**كُل بِدعة ضلالة وكل ضلالة في النار**»،[1] أي بعد أن كملتْ قواعدُ الشريعة الغراء ودساتيرُ السُّنّة المطهرة، وأخذت تمامَ كمالها، بدلالة

(١) مسلم، الجمعة ٤٣؛ أبو داود، السنة ٥؛ النسائي، العيدين ٢٢؛ ابن ماجه، المقدمة ٦، ٧؛ الدارمي، المقدمة ١٦، ٢٣؛ المسند ٣/ ٣١٠، ٣٧١، ٤/ ١٢٦، ١٢٧.

الآية الكريمة ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ (المائدة: ٣) فإن عدم استحسان تلك الدساتير بِمُحدَثات الأمور، أو إيجاد البدع التي تشعر كأن تلك القواعد ناقصة -حاش لله- ضلالٌ ليس له مستقر إلّا النار.

إن للسُّنّة المطهَّرة مراتبَ:

قسمٌ منها «واجب» لا يمكن تركُه، وهو مبينٌ في الشريعة الغراء مفصلًا، وهو من المُحكمات أي لا يمكن بأية جهة كانت أن تتبدل.

وقسم منها هو من قبيل «النوافل»، وهذا بدوره قسمان:

قسم منه هو السنن التي تخص العبادات، وهي مبيّنةٌ أيضًا في كتب الشريعة. وتغييرُ هذه السنن بدعةٌ.

أما القسم الآخر فهو الذي يُطلق عليه «الآداب» وهي المذكورة في كتب السير الشريفة، ومخالفتُها لا

تسمى بدعةً، إلّا أنها من نوع مخالفة الآداب النبوية، وعدم الاستفاضة من نورها، وعدم التأدب بالأدب الحقيقي. فهذا القسم هو اتباعُ أفعالِ الرسول ﷺ المعلومة بالتواتر في العُرف والعادات والمعاملات الفطرية، ككثيرٍ من السنن التي تبين قواعدَ أدب المخاطبة وتظهر حالات الأكل والشرب والنوم أو التي تتعلق بالمعاشرة. فمَنْ يتحرَّ أمثالَ هذه السنن التي تطلق عليها «الآداب» ويتبعها فإنه يحول عاداته إلى عبادات، ويستفيض من نور ذلك الأدب النبوي، لأن مراعاةَ أبسطِ الآداب وأصغرِها تذكّر بالرسول الأعظم ﷺ مما يسكب النورَ في القلب.

إنَّ أهم ما في السُّنّة المطهرة هي تلك السنن التي هي من نوع علاماتِ الإسلام والمتعلقة بالشعائر، إذ الشعائر هي عبادةٌ من نوع الحقوق العامة التي تخصُّ

المجتمع؛ فكما أن قيام فرد بها يؤدي إلى استفادة المجتمع كله، فإن تركها يجعل الجماعةَ كلها مسؤولة. فمثل هذه الشعائر يُعلن عنها وهي أرفعُ من أن تنالها أيدي الرياء وأهم من الفرائضِ الشخصية ولو كانت من نوع النوافل.

النكتة السابعة

إنَّ السُّنّة النبوية المطهرة في حقيقة أمرها لهي أدبٌ عظيم، فليس فيها مسألة إلّا وتنطوي على أدب ونور عظيم. وصدق رسول الله ﷺ حين قال: (**أدّبني ربي فأحسن تأديبي**).[1] نعم، فمن يمعن النظر في السيرة النبوية ويحط علمًا بالسُّنّة المطهرة، يدرك يقينًا أنَّ الله

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القران ١٨/ ٢٢٨؛ السلمي، آداب الصحبة ص ١٢٤؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة ١/ ٢٠١؛ المناوي، فيض القدير ١/ ٢٢٥؛ العجلوني، كشف الخفاء ١/ ٢٧.

سبحانه وتعالى قد جمع أصولَ الآداب وقواعدها في حبيبه ﷺ. فالذي يهجر سُنته المطهرة ويجافيها فقد هجر منابعَ الأدب وأصوله، فيحرم نفسه من خير عظيم، ويظل محرومًا من لطف الرب الكريم، ويقع في سوء أدب وبيل. ويكون مصداق القاعدة:

بِى أَدَبْ مَحْرُومْ بَاشَدْ أَزْ لُطْفِ رَبْ. (١)

سؤال: كيف نتأدب مع علّام الغيوب، البصير العليم، الذي لا يخفى عليه شيء، حيث إن هناك حالاتٍ تدعو الإنسان إلى الخجل، ولا يمكن إخفاؤها عنه سبحانه، ولا التستر منه، بينما سترُ مثل هذه الحالات المستكرهة أحدُ أنواع الأدب؟.

الجواب: أولًا: كما أن الصانع ذا الجلال يظهر

---

(١) أز خدا جوييم توفيق أدب   بي أدب محروم ماند أز لطف رب

مثنوي رومي ج١ ص٣ طبعة بومبي.

صنعته إظهارًا جميلًا في نظر مخلوقاته، ويأخذ الأمور المستكرَهة تحت أستار وحُجب، ويزيّن نِعَمه ويجمّلها حتى لتشتاقها الأبصار. كذلك يطلب سبحانه من مخلوقاته وعباده أن يَظهروا أمام ذوي الشعور بأجمل صورهم وأكثرها حُسنًا؛ إذ إن ظهورَهم للمخلوقات في حالات مزرية قبيحة، وأوضاع مستهجنة، يكون منافيًا للأدب الجميل، ونوعًا من العصيان تجاه قدسية أسمائه أمثال: «الجميل، المزيّن، اللطيف، الحكيم». وهكذا فالأدب الذي في السُّنّة النبوية الطاهرة إنما هو تأدب بالأدب المحض الذي هو ضمن الأسماء الحسنى للصانع الجليل.

ثانيًا: إنَّ الطبيب له أن ينظر إلى أشد الأماكن حُرمةً لمن يُحرم عليه، من زاوية نظر الطب والعلاج. بل يكشف له -في حالات الضرورة- تلك الأماكن ولا يُعد ذلك

خلافًا للأدب، وإنما يعتبر ذلك من مُقتضيات الطب. إلّا أن ذلك الطبيب نفسه لا يجوز له أن ينظر إلى تلك الأماكن المحرمة من حيث كونه رجلًا أو واعظًا أو عالمًا، فلا يسمح الأدبُ قطعًا بإظهارها له بتلك العناوين والصفات. بل يُعدّ ذلك انعدامًا للحياء.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فإن للصانع الجليل أسماء حسنى كثيرة، ولكل اسم تجليه، فمثلًا:

كما يقتضي اسمُ «الغفار» وجودَ الذنوب، واسمُ «الستار» وجود التقصيرات، فإن اسم «الجميل» لا يرضى برؤية القبح. وأن الأسماء الجمالية والكمالية، أمثال: «اللطيف، الكريم، الحكيم، الرحيم»، تقتضي أن تكون الموجوداتُ في أحسن الصور، وفي أفضل الأوضاع الممكنة. فتلك الأسماء الجمالية والكمالية تقتضي إظهار جمالها؛ بالأوضاع الجميلة للموجودات

وتأدّبها بالآداب الحسنة، أمام أنظار الملائكة والعالم الروحاني والجن والإنس.

وهكذا فالآداب التي تتضمنها السُّنّة المطهرة إشارةٌ إلى هذه الآداب السامية، ولفتةٌ إلى دساتيرها ونماذجها.

النكتة الثامنة

تبين الآية الكريمة ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ..﴾ كمالَ شفقة الرسول الكريم ﷺ ومنتهى رأفته نحو أمته. أما التي تعقبها ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ..﴾ فهي تقول:

«أيها الناس! أيها المسلمون! اعلموا كم هو انعدامٌ للوجدان وفقدان للعقل إعراضُكم عن سنن هذا النبي الرؤوف الرحيم، وعما بَلَّغ من أحكام، لحد إنكاركم شفقتَه البديهية، واتهام رأفته المشاهَدة، وهو الذي أرشدكم برأفته الواسعة وبذل كل ما أوتي لأجل

مصالحكم، مداويًا جراحاتكم المعنوية ببلسم سننه الطاهرة والأحكام التي أتى بها.

وأنت أيها الرسول الحبيب الرؤوف الرحيم، إن لم يعرف هؤلاء شفقتَك العظيمة هذه، لبلاهتهم، ولم يقدروا رأفتك الواسعة هذه، فأداروا لك ظهورَهم، ولم يعيروا لك سمعًا.. فلا تُبالِ ولا تهتم فإن رب العرش العظيم الذي له جنود السماوات والأرض والذي تهيمن ربوبيتُه من على العرش الأعظم المحيط بكل شيء، لهو كافٍ لك.. وسيجمع حولك المطيعين حقًا، ويجعلهم يصغون إليك ويرضون بأحكامك».

نعم، إنه ليست في الشريعة المحمدية والسُّنّة الأحمدية مسألة إلّا وفيها حِكَمٌ عديدة، فأنا هذا الفقير إلى الله أدَّعي بهذا، رغم كل عجزي وقصوري. وأنا على استعداد لإثبات هذه الدعوى. فما كتبتُه لحد الآن من

أكثر من سبعين رسالة من «رسائل النور» إنما هو بمثابة سبعين شاهدًا صادقًا على مدى الحكمة والحقيقة التي تنطوي عليها السُّنّة الأحمدية والشريعة المحمدية، فلو قُدر وكتب هذا الموضوع فلا يكفي سبعون رسالة ولا سبعة آلاف رسالة لإيفاء تلك الحِكم حقها.

ثم إني قد شاهدت شخصيًا، وتذوقتُه بنفسي، بل لي ألف تجربة وتجربة: أن دساتير المسائل الشرعية والسُّنّة النبوية أفضلُ دواء وأنفعُه للأمراض الروحية والعقلية والقلبية، ولاسيما الاجتماعية منها. فأنا أعلن بمشاهدتي وإحساسي هذا، وقد أشعرت الآخرين بشيء منها في الرسائل بأنه: لا يمكن أن تسد مسدّ تلك المسائل أية حلول فلسفية ولا أية مسألة حكيمة. فالذين يرتابون في ادعائي هذا عليهم مراجعة أجزاء «رسائل النور».

فليقدر إذن مدى الربح العظيم في السعي لاتباع سُنة

هذه الذات المباركة والجدّ في طلبها على قدر الاستطاعة، ومدى السعادة للحياة الأبدية ومدى النفع في الحياة الدنيا.

النكتة التاسعة

قد لا يتيسرُ اتباعُ كلِّ نوع من أنواع السُّنّة الشريفة اتباعًا فعليًّا كاملًا إلّا لأخص الخواص، ولكن يمكن لكل واحد الاتباع عن طريق النية والقصد والرغبة في الالتزام والقبول. ومن المعلوم أنه ينبغي الالتزام بأقسام الفرض والواجب. أما السنن المستحبَّة في العبادة فتركُها وإهمالُها وإن لم يكن فيه إثم إلّا أنه ضياع لثواب عظيم، وفي تغييرها خطأ كبير. أما السنن النبوية في العادات والمعاملات فإنها تصيّر العادةَ عبادةً رغم أن تاركها لا يُلام، إلّا أن استفادته تقل وتتضاءل من نور الآداب الحياتية لحبيب الله ﷺ.

أما البدع فهي: إحداثُ أمور في الأحكام التعبُّدية، وهي مردودةٌ حيث إنها تنافي الآية الكريمة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ غير أن تلك الأمور المستحدَثة إن كانت من قبيل الأوراد والأذكار والمشارب -كالتي في الطرق الصوفية- فهي ليست ببدعة ما دامت أصولُها مستقاةً من الكتاب والسُّنّة. إذ إن تلك الأصولَ والأسسَ المقررة رغم أنها بأشكال مختلفة وأنماط متباينة إلّا أنها مشروطةٌ بعدم مخالفتها للسنة النبوية وبعدم تغييرها لها. وعلى الرغم من ذلك فقد أدخل قسمٌ من أهل العلم بعضًا من هذه الأمور ضمن البدع، إلّا أنهم أطلقوا عليها «البدعة الحسنة». ولكن الإمام الرباني يقول: «كنت أرى في سيري عبر السلوك الروحاني أن الكلمات المروية عن الرسول الأعظم ﷺ منوَّرةٌ متألقة بشعاع السُّنّة المطهرة، في حين كنت أرى الأوراد العظيمة والحالات الباهرة

غير المروية عنه ليس عليها ذلك النور والتألق. فما كان يبلغ أسطع ما في هذا القسم -الأخير- إلى أقل القليل لما في السُّنّة.. ففهمت من هذا: أن شعاع السُّنّة المطهرة لهو الإكسيرُ النافذ، فالسُّنّة المطهرة كافية ووافية لمن يبتغي النور، فلا داعي للبحث عن نور في خارجها...»

فهذا الحكم الصادر من هذا الرائد البطل من أبطال الحقيقة والشريعة ليظهر لنا أن السُّنّة السنية هي الحجر الأساس لسعادة الدارين ومنبع الكمال والخير.

اللّهم ارزقنا إتباع السُّنّة السنية.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٥٣)

* * *

النكتة العاشرة

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

في هذه الآية الكريمة إيجاز معجز، حيث إن معانيَ كثيرة قد اندرجت في هذه الجمل الثلاث:

تقول الآية الكريمة: «إن كنتم تؤمنون بالله، فإنكم تحبونه، فما دمتم تحبونه فستعملون وفق ما يحبه، وما ذاك إلّا تشبهكم بمن يحبه.. وتشبهكم بمحبوبه ليس إلّا في اتباعه، فمتى اتبعتموه يحبكم الله، ومن المعلوم أنكم تحبون الله كي يحبكم الله».

وهكذا فهذه الجمل ما هي إلّا بعض المعاني المختصرة المجملة للآية، لذا يصح القول: إن أسمى مَقصَد للإنسان وأعلاه هو أن يكون أهلًا لمحبة الله.. فنصُّ هذه الآية يبيّن لنا أن طريق ذلك المَقصَد الأسنى

إنما هو في اتباع «حبيب الله» والاقتداء بسنته المطهرة.
فإذا ما أثبتنا في هذا المقام ثلاث نقاط فستتبين الحقيقة المذكورة بوضوح:

النقطة الأولى: لقد جُبل هذا الإنسانُ على محبة غير متناهية لخالق الكون، وذلك لأن الفطرة البشرية تكنّ حبًّا للجمال، وودًّا للكمال، وافتتانًا بالإحسان، وتتزايد تلك المحبة بحسب درجات الجمال والكمال والإحسان حتى تصل إلى أقصى درجات العشق ومنتهاه.

نعم، إنَّ في القلب الصغير لهذا الإنسان الصغير يستقر عشق بكبر الكون، إذ إن نقلَ محتويات ما في مكتبة كبيرة من كتب، وخزنَها في القوة الحافظة للقلب -وهي بحجم حبة عدس- يبين أن قلب الإنسان يمكنه أن يضم الكونَ ويستطيع أن يحمل حُبًّا بقدر الكون.

فما دامت الفطرة البشرية تملك استعدادًا غير

محدود للمحبة تجاه الإحسان والجمال والكمال.. وأن لخالق الكون جمالًا مقدسًا غير متناهٍ، ثبوتُه متحققٌ بداهة بآثاره الظاهرة في الكائنات.. وأن له كمالًا قدسيًّا لا حدود له، ثبوته محقق ضرورة بنقوش صنعته الظاهرة في هذه الموجودات.. وأن له إحسانًا غير محدود ثابت الوجود يقينًا، يمكن لمسُه ومشاهدته ضمن إنعامه وآلائه الظاهرة في جميع أنواع الأحياء.. فلا بُدَّ أنه سبحانه يطلب محبةً لا حدَّ لها من الإنسان الذي هو أجمعُ ذوي الشعور صفةً، وأكثرُهم حاجة، وأعظمُهم تفكرًا، وأشدهم شوقًا إليه.

نعم، كما أن كل إنسان يملك استعدادًا غير محدود من المحبة تجاه ذلك الخالق ذي الجلال، كذلك الخالق سبحانه هو أهلٌ ليكون محبوبًا، لأجل جماله وكماله وإحسانه أكثرَ من أي أحد كان، حتى إن ما في

قلب الإنسان المؤمن من أنواع المحبة ودرجاتها للذين يرتبط بهم بعلاقات معينة، ولاسيما ما في قلبه من حب تجاه حياته وبقائه، وتجاه وجوده ودنياه، وتجاه نفسه والموجودات بأسرها، إنما هي ترشحات من تلك الاستعدادات للمحبة الإلهية. بل حتى أشكال الاحساسات العميقة -عند الإنسان- ما هي إلّا تحولات لذلك الاستعداد، وما هي إلّا رشحاته التي اتخذت أشكالًا مختلفة.

ومن المعلوم أن الإنسان مثلما يتلذذ بسعادته الذاتية، فهو يتلذذ أيضًا بسعادة الذين يرتبط بهم بعلاقة ومحبة ومثلما يحب من ينقذُه من البلاء، فهو يحب من يُنجي محبيه من المصائب أيضًا.

وهكذا، فإذا ما فكر الإنسان وروحُه مفعمة بالامتنان لله، في إحسان واحد فقط مما لا يُعدُّ ولا يُحصى من

الإحسانات العظيمة التي قد غمر بها الله سبحانه وتعالى الإنسانَ وشمله بها، فإنه سيفكر على النحو الآتي:

إن خالقي الذي أنقذني من ظلمات العدم الأبدية، ومنحني منحةَ الخلق والوجود، ووهب لي دنيا جميلة استمتع بجمالها هنا على هذه الأرض، فإن عنايته أيضًا ستمتد إليّ حين يحين أجلي، فينقذني كذلك من ظلمات العدم الأبدي والفناء السرمدي، وسيهب لي -من فضل إحسانه- عالَمًّا أبديًّا باهرًا زاهرًا في عالم البقاء في الآخرة.. وسيُنعِم عليّ سبحانه بحواسَّ ومشاعر ظاهرة وباطنة لتستمتع وتتلذذ في تنقُّلها بين أنواع ملذّات ذلك العالم الجميل الطاهر.

كما أنه سبحانه سيجعل جميع الأقارب، وجميع الأحبة من بني جنسي الذين أكنّ لهم حبًّا عميقًا وأرتبط معهم بعلاقة وثيقة، سيجعلهم أهلًا لهذه الآلاء والإحسانات غير المحدودة..

وهذا الإحسان -من جهة- يعود عليّ كذلك، إذ إنني أتلذذ بسعادة أولئك، وأسعد بها.. فما دام في كل فرد حبٌّ عميق وافتتان بالإحسان كما في المثل: «الإنسان عبد الإحسان» فلا بُدَّ أن الإنسان أمام هذا الإحسان الأبدي غير المحدود سيقول: لو كان لي قلب بسعة الكون لاقتضى أن يُملأ حُبًّا وعشقًا تجاه ذلك الإحسان الإلهي، وأنا مشتاق لملئه، ولكن رغم أنني لست على مستوى تلك المحبة فعلًا، إلّا أنني أهلٌ لها بالاستعداد والإيمان، وبالنية والقبول، وبالتقدير والاشتياق، وبالالتزام والإرادة.

وهكذا ينبغي قياس ما يظهره الإنسانُ من المحبة تجاه «الجمال» وتجاه «الكمال» بمقياس ما أشرنا إليه مجملًا من المحبة تجاه «الإحسان».

أما الكافر الملحد، فإنه يحمل عداءً لا حد له فهو يستخف بالموجودات من حوله، ويستهين بها، ويمتهنها،

ويناصبها العداء والكراهية.

النقطة الثانية: إنَّ محبة الله تستلزم اتباع السُّنّة الطاهرة لمحمد ﷺ، لأن حبَّ الله هو العمل بمرضياته، وأن مرضاته تتجلى بأفضل صورها في ذات محمد ﷺ. والتشبه بذاته المباركة في الحركات والأفعال يأتي من جهتين:

إحداهما: جهة حب الله سبحانه وإطاعة أوامره، والحركة ضمن دائرة مرضاته، هذه الجهة تقتضي ذلك الاتباع، حيث إن أكملَ إمام وأمثل قدوة في هذا الأمر هو محمد ﷺ.

وثانيتهما: جهة ذاته المباركة ﷺ التي هي أسمى وسيلة للإحسان الإلهي غير المحدود للبشرية، فهي إذن أهلٌ لمحبة غير محدودة لأجل الله وفي سبيله.

والإنسان يرغب فطرةً في التشبه بالمحبوب ما أمكن، لذا فالذين يسعَون في سبيل حب «حبيب الله»

عليهم أن يبذلوا جهدهم للتشبه به باتباع سُنته الشريفة.

النقطة الثالثة: كما أن لله سبحانه وتعالى رحمةً غير متناهية، فله سبحانه كذلك محبةٌ غير متناهية. وكما أنه يُحبب نفسَه -بصورة غير محدودة- بمحاسن الكائنات جميعًا وبجمالها وزينتها إلى مخلوقاته، فإنه كذلك يحب مخلوقاته، ولاسيما أصحاب الشعور منهم الذين يقابلون تحبُّبَه لهم بالحب والتعظيم. لذا فإن أسمى مَقصَدِ الإنسان في مرضاة ربه، وأجلّ سعيه هو أن يكون موضعَ نظر محبة الله الذي خلق الجنة بلطائفها ومحاسنها ولذائذها ونعَمها بتجلٍّ من تجلّيات رحمته.

وبما أن أحدًا لا يمكنه أن يكون أهلًا لمحبته سبحانه إلّا باتباع السُّنّة الأحمدية كما نص عليه كلامه العزيز، إذن فاتباع السُّنّة المحمدية هو أعظمُ مقصد إنسانيّ وأهمُّ وظيفة بشرية.

النكتة الحادية عشرة

وهي ثلاث مسائل

المسألة الأولى: إن لسُنَّة الرسول الأعظم ﷺ ثلاثة منابع، هي:

أقوالُه، وأفعاله، وأحواله. وهذه الأقسام الثلاثة هي كذلك ثلاثة أقسام:

الفرائض، النوافل، عاداته ﷺ.

ففي قسم الفرائض والواجب، لامناص من الاتباع، والمؤمن مجبَر على هذا الاتباع بحكم إيمانه. والجميع بلا استثناء مكلّفون بأداء الفرض والواجب، ويترتب على إهماله أو تركه عذاب وعقاب.

وأما في قسم النوافل، فأهلُ الإيمان هم مكلَّفون به أيضًا حسب الأمر الاستحبابي، ولكن ليس في ترك النوافل عذابٌ ولا عقاب. غير أن القيام بها واتباعها فيه أجر

عظيم. وتغيير النوافل وتبديلها بدعة وضلالة وخطأ كبير.

وأما عاداته ﷺ وحركاته وسكناته السامية فمن الأفضل والمستحسن جدًّا تقليدُها واتِّباعها حكمةً ومصلحة سواءٌ في الحياة الشخصية أو النوعية أو الاجتماعية، لأن هناك في كل حركة من حركاته الاعتيادية منافعَ حياتية كثيرة جدًّا فضلًا عن أنها بالمتابعة تصير تلك الآداب والعادات بحكم العبادة.

نعم، ما دام -عليه الصلاة والسلام- متَّصفًا بأسمى مراتب محاسن الأخلاق، باتفاق الأولياء والأعداء. وأنه ﷺ هو المصطفى المختار من بين بني البشر، وهو أشهر شخصية فيهم باتفاق الجميع.. وما دام هو أكملَ إنسان، بل أكملَ قدوة ومرشد بدلالة آلاف المعجزات، وبشهادة العالم الإسلامي الذي كوّنَه، وبكمالاته الشخصية وبتصديق حقائق ما بلّغه من القرآن الحكيم..

وما دام ملايينُ من أهل الكمال قد سمَوا في مراتب الكمالات، وترقّوا فيها بثمرات اتباعه فوصلوا إلى سعادة الدارين... فلا بُدَّ أن سنة هذا النبي الكريم ﷺ وحركاتِه هي أفضلُ نموذج للاقتداء وأكملُ مُرشد للاتباع والسلوك وأحكمُ دستور، وأعظم قانون، يتخذه المسلم أساسًا في تنظيم حياته.

فالسعيد المحظوظ هو من له أوفرُ نصيب من هذا الاتباع للسنة الشريفة.

ومن لم يتبع السُّنّة فهو في خسران مبين إن كان متكاسلًا عنها.. وفي جناية كبرى إن كان غير مكترث بها.. وفي ضلالة عظيمة إن كان منتقدًا لها بما يومئ التكذيب بها.[1]

---

(١) انظر: البخاري، الاعتصام ٢، الأحكام ١، الجهاد ١٠٩؛ مسلم، الإمارة ٣٣؛ النسائي، البيعة ٢٧؛ أحمد بن حنبل، المسند ٢/ ٣٦١.

المسألة الثانية: لقد وصف الله سبحانه وتعالى الرسول ﷺ في القرآن الحكيم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

ووصفه الصحب الكرام كما وصفته الصحابية الجليلة الصديقة عائشة رضي الله عنها قائلة: (كان خُلُقهُ القرآن).[1] أي: «إن محمدًا ﷺ هو المثال النموذج لما بيَّنه القرآن الكريم من محاسن الأخلاق، وهو أفضل من تمثلت فيه تلك المحاسنُ، بل إنه خُلق فطرةً على تلك المحاسن». ففي الوقت الذي ينبغي أن يكون كلٌّ من أفعال هذا النبي العظيم ﷺ وأقوالُه وأحواله، وكلٌّ من حركاته نموذج اقتداءٍ للبشرية، فما أتعسَ أولئك المؤمنين من أمته الذين غَفَلوا عن سُنّته ﷺ ممن لا

(١) مسلم، صلاة المسافرين ١٣٩؛ ابن ماجه، الأحكام ١٤؛ أحمد بن حنبل، المسند ٦/ ٩١، ١٦٣، ٢١٦.

يبالون بها أو يريدون تغييرها فما أتعسهم وما أشقاهم!

المسألة الثالثة: لما كان الرسول ﷺ قد خُلق في أفضل وضع وأعدلِه وفي أكمل صورةٍ وأتمّها، فحركاتُه وسكناته قد سارت على وفق الاعتدال والاستقامة، وسيرتُه الشريفة تبين هذا بيانًا قاطعًا وبوضوح تام، بأنه قد مضى وفق الاعتدال والاستقامة في كل حركة من حركاته متجنبًا الإفراط والتفريط.

نعم لما كان الرسول ﷺ قد امتثل امتثالًا كاملًا قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ (هود: ١١٢) فالاستقامةُ تظهر في جميع أفعاله وأقواله وأحواله ظهورًا لا لبسَ فيه.

فمثلًا: إن قواه العقلية قد سارت دائمًا ضمن الحكمة التي هي محور الاستقامة والحد الوسط، مبرأةً عما يفسدُها ويكبتُها من إفراط وتفريط أي: الغباء والخب.

وإن قواه الغضبية قد سارت دائمًا ضمن الشجاعة

السامية التي هي محور الاستقامة والحد الوسط، منزهةً عما يفسدها من إفراط وتفريط أي: الجبن والتهور.

وإن قوته الشهوية قد اتخذت محورَ الاستقامة دائمًا وهي العفة واستقامت عليها بأسمى درجات العصمة، فصفت من فساد تلك القوة من إفراط وتفريط أي: الخمود والفجور.

وهكذا فإنه ﷺ قد اختار حد الاستقامة في جميع سننه الشريفة الطاهرة وفي جميع أحواله الفطرية وفي جميع أحكامه الشرعية، وتجنّب كليًّا من الظلم والظلمات أي: الإفراط والتفريط، والإسراف والتبذير، حتى إنه قد اتخذ الاقتصادَ له دليلًا متجنبًا الإسراف نهائيًا، في كلامه وفي أكله وفي شربه.

وقد أُلّفت في تفصيل هذه الحقائق آلافُ المجلدات، إلّا أننا اكتفينا بهذه القطرة من البحر، إذ «العارف تكفيه الإشارة».

اللّهم صَلِّ على جامع مكارم الأخلاق ومظهر سرِّ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ الذي قال: «**مَن تمسَّك بسُنَّتي عند فساد أُمَّتي فله أجرُ مِئة شَهيدٍ**».

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾

﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

* * *

الإشارة السابعة من اللمعة الثلاثين

السراج المنير

إنَّ هذا التوحيد الحقيقي، بجميع مراتبه، وبأتمّ صورته الكاملة، قد أثبته وأعلنه وفهّمه وبلّغه محمد ﷺ، فلا بُدَّ أن رسالته ثابتةٌ وقاطعة كقطعية ثبوت التوحيد نفسه؛ لأنه: لمّا كان التوحيدُ هو أعظمَ حقيقة في عالم الوجود، وأن الرسول الأعظم ﷺ هو الذي تولى تبليغَه وتعليمه بجميع حقائقه، فلا بُدَّ أن جميع البراهين التي تُثبت التوحيد، تكون بدورها براهينَ لإثبات رسالته وأدلةً على صدق نبوته وأحقّية دعوته ﷺ، فرسالةٌ كهذه الرسالة العظمى التي تضم أُلوفًا من أمثال هذه الحقائق السامية وتكشف عن حقيقة التوحيد وترشد إليه وتلقِّنُه، لا شك أنها رسالة يقتضيها ذلك التوحيد وتلك الفردية.

فمَن ذا غيرُ محمد ﷺ الذي أدّى الأمانة على أفضل وجه وبلّغ الرسالة على أجمل صورة؟

سنذكر ثلاثة نماذج، مثالًا لتلك الأدلة الكثيرة والأسباب العديدة التي تشهد بعظمة الشخصية المعنوية لهذا النبي الكريم ﷺ وتدل على علوّ منزلته الرفيعة، وتبيّن أنه السراج المنير لهذه الكائنات وشمسها الساطعة.

الدليل الأول: إنَّ ثواب جميع الحسنات التي ينالها جميعُ أفراد الأمة، وعلى مدى جميع العصور، مكتوبٌ مثلُه في صحيفة حسناته ﷺ، إذ هو السبب في نيل كل ثواب تناله أمتُه إلى يوم القيامة، حيث «السبب كالفاعل».. تأمل في هذا ثم فكّر في المقام المعظَّم اللائق الذي يقتضيه مجموعُ الأدعية غير المحدودة من الصلوات المقبولة المرفوعة يوميًّا من الأمّة كافة.. تدرك عندئذٍ، درجته العالية الرفيعة وتفهم أن شخصيته

المعنوية شمسُ الكائنات والسراج المنير للخلق أجمعين.

الدليل الثاني: إنَّ بذرة الشجرة الوارفة للإسلام، ومنشأها، وحياتَها، ومنبعها إنما هي حقيقة الماهية المحمدية، بما تملك من فطرة سامية، وخلقة كاملة. فتذكّر هذا ثم فكِّر في الرُّقيّ الروحي لهذا الرسول الحبيب ﷺ النابع من استشعاره الكامل الأتمّ لجميع معاني عبادته، وأذكاره، وكلماته الشريفة ومراتبها، والتي تمثل بمجموعها روحَ الإسلام وحقيقتَه، لتعلم مدى علوِّ مرتبة ولاية عبوديته ﷺ إلى الدرجة الرفيعة، درجة الحبيبية. وافهم مبلغَ سموّها.

ولقد فتح الله عليّ يومًا في سجدةٍ في صلاةٍ، بعض المعاني والأنوار المشعة من كلمة (سبحان ربي الأعلى) بما يقرب من فهم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين من هذه الكلمة المقدسة. فتبين لي يقينًا أنها خيرٌ من

عبادة شهر، فأدركتُ بها المنزلة العظيمة والدرجة العالية التي يحظى بها الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

نعم، إنَّ الأنوار التي تُشِعُّها الكلماتُ المقدسة، وفيوضاتُها في بدء الإسلام لها مزايا خاصة، وذلك لجدّتها، ولها من اللطافة والطراوة واللذة ما تتناقص بمرور الزمن وتتستر تحت ستار الغفلة.

والآن، وفي ضوء ما سبق تأمل مكانة الرسول الكريم ﷺ الذي تناول الكلام المقدَّس، ورَشَفَه من المنبع الأقدس، واستوعب أنواره بالوحي الإلهي بكامل جدّتِه وطراوته ولطافته. مع ما فُطر عليه من استعداد كامل.. فالأنوار والفيوضات الكامنة في تسبيحةٍ واحدة منه ﷺ هي خيرٌ وأعمّ من جميع الأنوار التي تملأ أرجاء عبادة سنة كاملة عند غيره..!.

قِس على هذا المنوال، كي تعلم كم بلغ رسولُنا الحبيب ﷺ من درجات الكمال التي لا حدَّ لها ولا نهاية.

الدليل الثالث: إنَّ الإنسان يمثل أعظم مَقصَد من المقاصد الإلهية في الكون، وهو المؤهَّل لإدراك الخطاب الرباني. وقد اختاره سبحانه من بين مخلوقاته، واصطفى من بين الإنسان المكرّم مَن هو أكملُ وأفضل وأعظم إنسان بأعماله وآثاره الكاملة، ليكون موضعَ خطابه الجليل باسم النوع الإنساني كافة، بل باسم الكائنات جميعًا. فلا ريب أن الله سبحانه الفرد الجليل الذي هيأ رسوله الحبيب ﷺ لهذه المرتبة اللائقة به قد منحه من الأنوار والكمالات ما لا يُحدُّ بحدود.

وهكذا وبمثل هذه الدلائل الثلاثة ودلائل أخرى كثيرة يَثبت لدينا يقينًا: إن الشخصية المعنوية للرسول

الكريم ﷺ، شمس معنوية ساطعة للكائنات. وسراج منير لامع لها، كما أنها الآية العظمى من قرآن الكون، والاسم الأعظم للفرقان الأعظم، ومرآة صافية للتجلي الأعظم لأنوار اسم «الفرد» عزّ وجل.

فاللّهم يا أحدُ، يا فردُ، يا صمدُ، أنزِل من بركات خزينة رحمتك التي لا تنفد صلواتٍ وسلامًا على تلك الذات النبوية الشريفة، بعدد ذرات الكون مضروبًا بعدد عاشرات جميع أزمنة الكون.

﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

* * *

الثمرة الثانية والثالثة

من الكلمة الرابعة والعشرين

حكمة الأعداد غير المتناهية في الأذكار والصلوات

يا نفسُ! إن وظائف العبودية وتكاليفَها ليست مقدمةً لثوابٍ لاحق، بل هي نتيجة لنعمة سابقة.

نعم؛ نحن قد أخذنا أجرتَنا من قبل، وأصبحنا بحسب تلك الأجرة المقدَّمة لنا مكلّفين بالخدمة والعبودية؛ ذلك لأنّ الخالق ذا الجلال والإكرام الذي ألبسكِ -أيتها النفس- الوجودَ، وهو الخير المحض، قد أعطاك باسمه «الرزاق» معدة تتذوّقين وتتلذذين بجميع ما فرَشَه أمامَك على مائدة النعمة من مأكولات. ثم إنه وهَب لك حياةً حساسة، فهي كالمعدة تطلب رزقًا لها، فوضع أمام

حواسك من عين وأذن وهي كالأيدي مائدةَ نعمةٍ واسعة سعةَ سطح الأرض. ثم وهب لك إنسانيةً تطلب بدورها أرزاقًا معنوية كثيرة، ففتح أمام معدة الإنسانية آفاقَ المُلك والملكوت بمقدار ما يصل إليه العقلُ.

وبما وهب لك من الإسلام والإيمان الذي هو «الإنسانية الكبرى» والذي يطلب نِعَمًا لا نهاية لها، ويتغذى على ثمار الرحمة التي لا تَنفَد، فتح لك مائدةَ النعمة والسعادة واللذة الشاملة للأسماء الحسنى، والصفات الربانية المقدسة، ضمن دائرة الممكنات. ثم أعطاك المحبةَ التي هي نورٌ من أنوار الإيمان، فأحسن إليكِ بمائدةِ نعمةٍ وسعادة ولذة لا تنتهي أبدًا.

بمعنى أنك قد أصبحت، بإحسانه سبحانه وتعالى، بحسب جسمك الصغير المحدود المقيد الذليل العاجز الضعيف، من جزءٍ إلى كلّي، وإلى كلٍّ نوراني، إذ قد

رفعك من الجزئية إلى نوعٍ من الكلية، بما أعطاك «الحياة». ثم إلى الكلّية الحقيقية، بما وهب لك «الإنسانية»، ثم إلى الكلية النورانية السامية بما أحسن إليك «الإيمان»، ومنها رفعك إلى النور المحيط الشامل بما أنعم عليك من «المعرفة والمحبة».

فيا نفس! لقد قبضتِ مقدَّمًا كلَّ هذه الأجور والأثمان؛ ثم كُلّفتِ بالعبودية، وهي خدمة لذيذة وطاعة طيبة بل مريحة خفيفة؛ أفَبعد هذا تتكاسلين عن أداء هذه الخدمة العظيمة المشرّفة؟ وتقولين بدلال: لِمَ لا يُقبل دعائي؟ حتى إذا ما قمتِ بالخدمة بشكل مهلهل تطالبين بأجرةٍ عظيمة أخرى، وكأنك لم تكتفي بالأجرة السابقة؟ نعم؛ إنه ليس من حقكِ الدلال أبدًا، وإنما من واجبك التضرع والدعاء، فالله سبحانه وتعالى يمنحكِ الجنة والسعادة الأبدية بمحض فَضلِه وكرمِه،

لذا فالتجئي إلى رحمته، واعتمدي عليها، ورددي هذا النداء العلوي الرباني:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (يونس:٥٨).

وإذا قلت: كيف يمكنني أن أقابل تلك النِعَم الكلية التي لا تُحدّ بشكري المحدود الجزئي؟

فالجواب: بالنية الكلية، وبالاعتقاد الجازم الذي لا حدّ له.

فمثلًا: إن رجلًا يدخل إلى ديوان السلطان بهدية زهيدة متواضعة بقيمة خمسة فلوس، ويشاهد هناك هدايا مرصوصة تقدَّر أثمانُها بالملايين أرسلت إلى السلطان من قبل ذوات مرموقين. فعندها يناجي نفسه: ماذا أعمل؟ إن هديتي زهيدة ولا شيء! إلّا أنه يستدرك ويقول فجأة: «يا سيدي؛ إنني أقدم لك جميعَ هذه

الهدايا باسمي، فإنك أهل لها، ويا سيدي العظيم، لو كان باستطاعتي أن أقدّم لك أمثال هذه الهدايا الثمينة لما ترددت». وهكذا فالسلطان الذي لا حاجة له إلى أحد، والذي يقبل هدايا رعاياه رمزًا يشير إلى مدى إخلاصهم وتعظيمهم له، يقبل تلك الهديةَ المتواضعة جدًّا من ذلك الرجل المسكين كأنها أعظمُ هدية، وذلك بسبب تلك النية الخالصة منه، والرغبة الصادقة، واليقين الجازم الجميل السامي.

وهكذا، فالعبد العاجز عندما يقول في الصلاة: «**التحيات لله**»[1] ينوي بها: «إنني أرفع إليك يا إلهي باسمي هدايا العبودية لجميع المخلوقات، التي هي حياتها. فلو كنتُ أستطيع أن أقدم التحيات إليك يا ربي

(١) البخاري، الأذان ١٤٨، العمل في الصلاة ٤، الاستئذان ٣، ٢٨؛ مسلم، الصلاة ٥٥، ٦٠، ٦٢.

بعددهم لما أحجَمتُ ولا ترددت، فإنك أهل لذاك، بل أكثر. فهذه النية الصادقة والاعتقاد الجازم، هي الشكر الكلي الواسع».

ولنأخذ مثلًا من النباتات حيث النوى والبذور فيها بمثابة نيّاتها. فالبطيخ مثلًا يقول بما ينوي من آلاف النوى التي في جوفه: يا خالقي إنني على شوق ورغبة أن أعلن نقوشَ أسمائك الحسنى في أرجاء الأرض كلها. وحيث إن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يحدث وكيف يحدث، فإنه يقبل النية الصادقة كأنها عبادةٌ فعلية، أي: كأنها حدثت. ومن هنا تعلم كيف أن نية المؤمن خير من عمله، وتفهم كذلك حكمةَ التسبيح بأعداد غير نهائية في مثل: «سبحانك وبحمدك عدد خلقك ورضاء نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك»[1] ونسبِّحك بجميع

---

(١) انظر: مسلم، الذكر ٧٩؛ الترمذي، الدعوات ١٠٣؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/ ٢٥٨.

تسبيحات أنبيائك وأوليائك وملائكتك.

فكما أن الضابط المسؤول عن الجنود يقدّم أعمالَهم وإنجازاتِهم إلى السلطان باسمه، كذلك هذا الإنسان الذي هو ضابط على المخلوقات، وقائد للنباتات والحيوانات، ومؤهَّل ليكون خليفةً على موجودات الأرض، ويعدّ نفسَه مسؤولًا ووكيلًا عمّا يحدث في عالمه الخاص.. يقول بلسان الجميع: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فيقدّم إلى المعبود ذي الجلال جميعَ عبادات الخلق واستعاناتهم.. ويجعل الموجودات قاطبة كذلك تتكلم باسمه وذلك عند قوله: «سبحانك بجميع تسبيحات جميع مخلوقاتك، وبألسنة جميع مصنوعاتك».

ثم إنه يصلّي على النبي ﷺ باسم جميع الأشياء على الأرض: «اللهمَّ صلِّ على محمدٍ بعدد ذرات

الكائنات ومركباتها».. إذ إن كل شيء في الوجود له علاقة مع النور المحمدي عليه الصلاة والسلام.

وهكذا افهم حكمةَ الأعداد غير النهائية في التسبيحات والصلوات.

*** الثمرة الثالثة:**

فيا نفس! إن كنتِ حقًّا تريدين أن تنالي عملًا أخرويًّا خالدًا في عمر قصير؟ وإن كنت حقًّا تريدين أن ترَي فائدةً في كل دقيقة من دقائق عمرك كالعمر الطويل؟ وإن كنت حقًّا تريدين أن تحوّلي العادةَ إلى عبادة وتبدّلي غفلتك إلى طمأنينة وسكينة؟ فاتَّبعي السُّنّة النبوية الشريفة.. ذلك: لأن تطبيق السُّنّة والشرع في معاملةٍ ما، يُورث الطمأنينةَ والسكينة، ويُصبح نوعًا من العبادة، بما يثمر من ثمرات أخروية كثيرة.

فمثلًا: إذا ابتعت شيئًا، ففي اللحظة التي تطبق الأمر

الشرعي (الإيجاب والقبول) فإن جميع هذا البيع والشراء يأخذ حُكمَ العبادة. حيث تذكرك بالحكم الشرعي. مما يعطي تصوّرًا روحيًّا. وهذا التصور يذكّرك بالشارع الجليل سبحانه، أي يعطي توجّهًا إلهيًّا. وهذا هو الذي يَسكُبُ السكينة والطمأنينة في القلب.

أي: إن إنجاز الأعمال وفق السُّنّة الشريفة يجعل العمرَ الفاني القصير مدارًا للحياة الأبدية، ذات ثمار خالدة. لذا فأنصتي جيدًا إلى قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف:١٥٨) واسعَي أن تكوني مظهرًا جامعًا شاملًا لفيض تجلٍّ لكل اسم من تجلّيات الأسماء الحسنى المنتشرة في أحكام السُّنّة الشريفة والشرع.

* * *

من ملحق قسطموني

إلى المتكاسل في أذكار الصلاة

لقد قلت لأحد إخواننا الذي أظهر تكاسلًا وفتورًا في قراءة الأذكار بعد الصلاة:

إن تلك الأذكار والأوراد عقب الصلاة هي سنة نبوية مطهرة وطريقة محمدية شريفة، وهي أوراد الولاية الأحمدية، فأصبحت أهميتُها من هذه الزاوية عظيمة.

ثم وضّحت حقيقة هذا القول بهذا الشكل: مثلما أن الولاية الأحمدية التي انقلبت إلى الرسالة هي فوق جميع الولايات قاطبة، فإن طريقة تلك الولاية الكبرى وأذكارها عقب الصلاة هي فوق سائر الطرق والأوراد بالدرجة نفسها. ثم انكشف هذا السرّ كما يأتي:

كما أن كل ذاكر في حلقة الذكر، أو في ختمة الذكر في المسجد. يشعر برابطة روحية، تربطه بمن حوله،

فيحسون جميعًا بحالة روحية نورانية، فإن ذا القلبِ اليقظ يحس إحساسًا روحيًّا كلما سبّح بـ«**سبحان الله.. سبحان الله.. سبحان الله..**» بعد الصلاة، أنه في حلقة ذكر مع مئة مليون من المسبّحين الذاكرين، كأنهم بين يدي الرسول ﷺ، الذي يترأَّس تلك الحلقة الذاكرة المترامية الأطراف.

فبهذه الأحاسيس الشاعرة بالعظمة والهيبة والرفعة والعلو يكرر المؤمن: «**سبحان الله.. سبحان الله**».

ثم إنه عندما يردد «**الحمد لله.. الحمد لله..**» بأمر معنوي صادر من ذلك السيد الكريم ﷺ فإنه يتأمل ويفكر في عظمة تلك الكلمة: (**الحمد لله**) المنطلقة من صدور مئة مليون من المردِّدين في تلك الحلقة الواسعة الشاسعة، فيشترك معهم بقوله: «**الحمد لله.. الحمد لله.. الحمد لله..**».

وهكذا، مع كلمة «**الله أكبر.. الله أكبر..**» ومع «**لا إله إلّا الله.. لا إله إلّا الله**» ثلاثًا وثلاثين مرة، حيث يختم الذكر..

وبعد إتمام هذه الأذكار اللطيفة بتلك المعاني والتأمل الأخوي يتوجه إلى سيد الحلقة الذاكرة وهو الرسول الكريم ﷺ حاملًا معه تلك المعانيَ المذكورة مع إخوانه في حلقة الذكر قائلًا:

ألف ألف صلاة وألف ألف سلام عليك يا رسول الله.

أجل، هكذا أحسست، وهكذا فهمت، بل هكذا رأيت خيالًا، لذلك أقول: إن الأذكار عقب الصلاة، لها أهمية كبرى.

* * *

من اللمعة الثامنة والعشرين

وهذه خاطرة جميلة

حينما كنت اقرأ جملة «**ألفُ ألفِ صلاةٍ وألف ألف سلام عليك يا رسول الله**» عقب الصلاة، تراءت لي من بعيد خاطرةٌ لطيفة انكشفت من تلك الصلوات، إلّا أنني لم أتمكن من اقتناصها كاملة، ولكن سأشير إلى بعض جمَلها:

رأيت أن عالَم الليل شبيهٌ بمنزل جديد يُفتح لدار الدنيا.. دخلت ذلك العالم في صلاة العشاء، ومن انبساط فوق العادة للخيال ويحكم ارتباط ماهية الإنسان مع الدنيا قاطبة رأيت أنَّ هذه الدنيا العظيمة قد أصبحت في ذلك الليل منزلًا صغيرًا جدًا حتى لا يكاد يُرى ما فيه من بشر وذوي حياة. ورأيت -خيالًا- أن ليس هناك من ينوّر ذلك

المنزل إلّا الشخصية المعنوية للرسول ﷺ حتى امتلأت أرجاؤه بهجة وأنسًا وسرورًا.

وكما يبدأ الشخصُ بالسلام عند دخوله المنزل، كذلك وجدت في نفسي شوقًا هائلًا ورغبة جياشة إلى القول: ألف ألف سلام عليك يا رسول الله ..[1] ومن هنا وجدت نفسي كأنني أُسلّم عليه بعدد الإنس والجن

---

(١) ذلك لأن الرحمة النازلة على الرسول الكريم ﷺ هي متوجهة لحاجة الأمة قاطبة في زمن أبدي، لذا فالصلاة غير المتناهية التي تهدى إليه منسجمة جدًا.

فلو دخل شخص بيتًا خاليًا مظلمًا موحشًا كالدنيا المظلمة الموحشة بالغفلة كم سيأخذه الرعب والدهشة والاضطراب؟ ولكن كم يسرّه ويؤنسه ويفرحه وينوره لو رأى أن شخصًا قد تصدر ذلك البيت يعرّفه بجميع ما فيه؟ فما بالك لو كان هذا الشخص هو الحبيب المحبوب والأنيس المأنوس وهو الرسول العظيم ﷺ، متصدر بيت العالم، يعرّف لنا المالكَ الرحيمَ الكريمَ بما فيه -أي بيت العالم- من أشياء.

قس هكذا لكي تقدر بنفسك قيمة الصلوات عليه ولذتها. (المؤلف).

وأعبر بسلامي هذا عن تجديد البيعة له والرضى برسالته وقبولها منه وإطاعة القوانين التي أتى بها، والتسليم لأوامره وسلامته من بلايانا. أي: كأنني أقدم هذا السلام -ناطقًا بتلك المعاني- باسم كل فرد من أفراد عالمي وهم ذوو الشعور من جن وإنس، وجميع المخلوقات.

وكذا فإن ما جاء به من النور العظيم والهدية الغالية ينور عالمي الخاص هذا كما ينور العالم الخاص لكل أحد في هذه الدنيا، فيحوّل عالَمنا إلى عالم زاخر بالنعم. فقلت تجاه هذه النعمة الهائلة: «اللهم أنزل ألفَ صلاة عليه» علّها تكون شكرانًا وعرفانًا للجميل على ذلك النور الحبيب والهدية الغالية، إذ إننا لا نستطيع أن نردّ جميلَه وإحسانه إلينا أبدًا، فأظهَرنا تضرُّعنا إلى الله جل وعلا بالدعاء والتوسل كي يُنزل من خزائن رحمته رحمةً عليه بعدد أهل السماوات جميعًا.. هكذا أحسست خيالًا.

فهو ﷺ يطلب صلاةً بمعنى «الرحمة» من حيث إنه «عبد» ومتوجه من الخلق إلى الحق سبحانه. ويستحق «السلام» من حيث إنه «رسول» من الحق سبحانه إلى الخلق.

وكما أننا نرفع إليه سلامًا بعدد الإنس والجن، ونجدد له البيعة العامة بعددها أيضًا، فإنه ﷺ يستحق أيضًا صلاة من خزائن الرحمة الإلهية بعدد أهل السماوات، وباسم كل واحد منهم؛ ذلك لأن النور الذي جاء به هو الذي يظهر كمال كل شيء في الوجود، ويُبرز قيمةَ كل موجود، وتُشاهد به الوظيفة الربانية لكل مخلوق، وتتجلى به المقاصد الإلهية من كل مصنوع. لذلك لو كان لكل شيء لسانٌ لكان يردِّد قولًا كما يردِّد حالًا: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله.. فنحن بدورنا نقول بدلًا عن المخلوقات كافة:

ألفُ ألف صلاة وألفُ ألف سلام عليك يا رسول الله

بعدد الإنس والجن وبعدد الملك والنجوم.

فَيَكْفِيكَ أنَّ الله صَلّى بِنَفْسِهِ

وَأمْلَاكَهُ صَلَّتْ عَلَيْهِ وَسَلَّمَتْ

سعيد النورسي

* * *

المكتوب الرابع والعشرون - الذيل الأول

الدعاء مخّ العبادة

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ (الفرقان: ٧٧)

النكتة الأولى

اعلم أنَّ الدعاء سر عظيم للعبادة، بل هو مخ العبادة وروحُها،[1] والدعاء -مثلما ذكرناه في مواضع أخرى كثيرة- على أنواع ثلاثة.

النوع الأول من الدعاء:

هو دعاءٌ بلسان الاستعداد والقابلية المُوْدَعة في الشيء. فالحبوب والنُويَّات جميعُها تسأل فاطرَها الحكيم بلسان استعدادها وقابلياتها المودعة فيها قائلة:

---

(١) انظر: الترمذي، الدعاء ١، تفسير سورة البقرة ١٦، غافر ١؛ أبو داود، الوتر ٢٣؛ ابن ماجه، الدعاء ١.

اللهم يا خالقنا هيِّئ لنا نموًّا نتمكن به من إبراز بدائع أسمائك الحسنى، فنعرِضها أمام الأنظار.. فحوِّل اللهم حقيقتَنا الصغيرة إلى حقيقة عظيمة.. تلك هي حقيقةُ الشجرة والسنبل.

وثمة دعاء من هذا النوع -أي بلسان الاستعداد- هو اجتماع الأسباب. فاجتماع الأسباب دعاءٌ لإيجاد المسبَّب، أي أن الأسباب تتخذ وضعًا معيّنًا وحالة خاصة بحيث تكون كلسان حال يطلب المسبَّب من القدير ذي الجلال، فالبذور مثلًا تسأل بارئها القدير أن تكون شجرةً، وذلك بلسان استعدادها، فيتخذ كلٌّ من الماء والحرارة والتراب والضوء حالة معينة حول البذرة حتى تكون تلك الحالة كأنها لسانٌ ينطق بالدعاء قائلًا: اللهم يا خالقنا اجعل هذه البذرة شجرة.

نعم، إنَّ الشجرة التي هي معجزةُ قدرة إلهية خارقة

لا يمكن بحال من الأحوال أن يُفوَّض أمرُها ويُسند خلقُها إلى تلك المواد البسيطة الجامدة الفاقدة للشعور، بل محال إحالتها إلى تلك الأسباب.. فاجتماع الأسباب إذن إنما هو نوعٌ من الدعاء.

النوع الثاني من الدعاء:

هو الدعاء الذي يُسأل بلسان حاجة الفطرة، فالكائنات الحية جميعُها تطلب مطاليبها وتسأل حاجاتِها -الخارجة عن طوقها واختيارها- من خالقها الرحيم وتُستجاب لها مطاليبُها وحاجاتُها في أنسب وقت ومن حيث لا تَحتسب، إذ إن أيديها قاصرةٌ عن أن تصل إلى ما تريد أو دفع حاجة لها، فإرسال كل ما تطلبه إذن مما هو خارجٌ عن طوقها واختيارها وفي أنسب وقت ومن حيث لا تحتسب إنما هو من قِبَل حكيم رحيم. وإغداقُ هذا الإحسان والإنعام ما هو إلّا استجابةٌ لدعاء فطري.

نحصل من هذا: أنَّ هذا النوع من الدعاء الفطري تنطلق به ألسنةُ حاجةِ الفطرة لجميع الكائنات فتسأل الخالق القدير مطالبيَها، والتي هي من قبيل الأسباب تسأل القدير العليم المسبَّبات.

النوع الثالث من الدعاء:

هو الدعاء الذي يسأله ذوو الشعور لتلبية حاجاتهم. وهذا الدعاء نوعان أيضًا:

فالقسم الأول: مستجاب على الأغلب إنْ كان قد بلغ درجةَ الاضطرار، أو كان ذا علاقة قوية مع حاجة الفطرة ومتوافقًا معها، أو كان قريبًا من لسان الاستعداد والقابلية، أو كان خالصًا صافيًا نابعًا من صميم القلب.

إن ما أحرزه الإنسان من رقيٍّ، وما نال من كشوفات ما هو إلّا نتيجة هذا النوع من الدعاء، إذ ما يطلقون عليه من خوارق الحضارة والأمور التي يحسبونها مدار افتخار

اكتشافاتهم ما هو إلّا ثمرةُ هذا الدعاء المعنوي الذي سألته البشريةُ بلسان استعداد خالص فاستُجيب لها. فما من دعاء يُسأل بلسان الاستعداد وبلسان حاجة الفطرة إلّا استُجيب إن لم يكن هناك مانع، وكان ضمن شرائطه المعينة.

أما القسم الثاني: فهو الدعاء المعروف لدينا. وهذا أيضًا فرعان:

أحدهما: فعلي **والآخر**: قولي.

فمثلًا: حرثُ الأرض نوعٌ من دعاء فعلي، يطلب الإنسان الرزقَ من رزّاقه الحكيم، يطلبه منه، لا من التراب، فالتراب بابٌ لخزينة رحمته الواسعة ليس إلّا، يطرقه الإنسان بالمحراث.

سنطوي تفاصيلَ الأقسام الأخرى ونذكر بضعةَ أسرار للدعاء «القولي» وذلك في بضع نكات آتية:

النكتة الثانية

اعلم أن تأثير الدعاء عظيم، ولا سيما إذا دام واكتسب الكلّية. فهذا الدعاء يُثمر على الأغلب ويُستجاب دائمًا. حتى يصح أن يقال: إن سبب خلق العالم إنما هو دعاء، حيث إن الدعاء العظيم للرسول الأعظم ﷺ وهو يتقدم العالم الإسلامي الذي يدعو الدعاء نفسه، وهم يتقدمون البشرية جمعاء التي تسأل الدعاء نفسه.. ذلك الدعاء هو: السعادة الأبدية، وهو سبب من أسباب خلق العالم. أي: أن رب العالمين قد علم بعلمِه الأزلي أن ذلك الرسول الكريم ﷺ سيسأله السعادةَ الأبدية والحظوة بتجلٍّ من تجلّيات أسمائه الحسنى، سيسأله باسم البشرية قاطبة بل باسم الموجودات.. فاستجاب سبحانه وتعالى لذلك الدعاء العظيم فخلق هذا العالم.

فما دام الدعاء قد اكتسب هذه الأهمية العظيمة

والسعة الشاملة فهل يمكن ألّا يستجاب؟ وهل يمكن لدعاء يلهج به مئاتُ الملايين من البشر -في الأقل- ومنذ ألف وثلاث مئة سنة، يدعونه متَّفقين، في كل حين، بل يدعو معهم كل الطيِّبين من الجن والملك والروحانيات ممن لا يُحصَون ولا يُعدُّون.. هل يمكن ألّا يستجابَ هذا الدعاء الذي يدعونه للرسول الكريم ﷺ لينال الرحمة الإلهية العظيمة والسعادة الخالدة.

فما دام قد اكتسب هذا الدعاءُ الكليةَ والسعةَ والدوام إلى هذا الحد حتى بلغ درجة لسان الاستعداد وحاجة الفطرة، فلا بُدَّ أن ذلك الرسول الكريم محمد بن عبد الله ﷺ قد اعتلى -نتيجة الدعاء- مرتبةً رفيعة عالية بحيث لو اجتمعت العقولُ جميعًا للإحاطة بحقيقة تلك المرتبة لعجزت عجزًا تامًا.

فبُشراك أيها المسلم! إن لك شفيعًا كريمًا في يوم

الحشر الأعظم، هو هذا الرسول الحبيب ﷺ... فاسعَ لنيل شفاعته باتباع سُنّته المطهرة.

فإن قلت: ما حاجة الرسول الكريم ﷺ وهو حبيب رب العالمين إلى هذه الكثرة من الدعاء والصلوات عليه؟

الجواب: إنه ﷺ ذو علاقة قوية مع سعادة أمته قاطبة، فله حصتُه مما ينالُه كل فرد من أفراد أمته من أنواع السعادة، وهو يحزن أيضًا ويتألم لكل مصيبة تُصيبهم.

فعلى الرغم من أن مراتب الكمال والسعادة بحقّه لا حدَّ لها، فإن الذي يرغب رغبة شديدة في أن ينال أفرادُ أمته الذين لا يحدّون أنواعًا لا تُحدُّ من السعادة وفي أزمان لا تُحدُّ، ويتألم بأنواع لا حدَّ لها من شقائهم ومصائبهم، لا بد أنه محتاج وحريٌّ به صلواتٌ لا حدَّ لها وأدعية لا حدَّ لها ورحمة لا حدَّ لها.

فإن قلت: يُدعى أحيانًا بدعاء خالص لأمور تقع قطعًا، كالدعاء في صلاة الكسوف والخسوف، وقد يدعى أحيانًا لأمور لا يمكن وقوعها..

الجواب: لقد أوضحنا في «كلمات أخرى»: أنَّ الدعاء نوعٌ من العبادة، حيث يعلن الإنسان عجزَه وفقره بالدعاء. أما المقاصد الظاهرية فهي أوقاتُ تلك الأدعية والعبادة الدعائية، وهي ليست نتائج الأدعية وفوائدها الحقيقية، لأن فائدة العبادة وثمرتَها متوجهةٌ إلى الآخرة، أي يجنيها الداعي في الآخرة، لذا لو لم تحصل المقاصدُ الدنيوية التي يتضمنها الدعاء فلا يجوز القول: إن الدعاء لم يُستجب، وإنما يصح القول: إنه لم ينقضِ بعدُ وقتُ الدعاء.

فهل يمكن يا ترى ألاّ يُستجاب دعاء للسعادة الخالدة، يسألها جميعُ أهل الإيمان في جميع الأزمنة،

يسألونه بإلحاح وخلوص نية وباستمرار. فهل يمكن ألّا يَقبل الرحيمُ المطلق والكريم المطلق -الذي تشهد الكائناتُ بسِعَة رحمته وشمول كرمه- هذا الدعاء، وهل يمكن ألّا تتحقق تلك السعادة الأبدية!؟ كلا ثم كلا..

النكتة الثالثة

إن استجابة «الدعاء القولي الاختياري» تكون بجهتين:

فإما أن يُستجاب الدعاء بعينه، أو بما هو أفضل منه وأولى.

فمثلًا: يدعو أحدهم أن يرزقه الله مولودًا ذكرًا، فيرزقه الله تعالى مولودةً، كمريم عليها السلام، فلا يُقال عندئذ: أن دعاءه لم يستجب، بل قد استُجيب بما هو أفضل من دعائه.

ثم إنَّ الإنسان قد يدعو لنيل سعادة دنيوية، فيستجيب

الله له لسعادة أخروية، فلا يقال: أن دعاءه لم يستجب، بل قد استجيب بما هو أنفع له... وهكذا.

فنحن إذن ندعوه سبحانه ونسأل منه وحدَه، وهو يستجيب لنا، إلّا أنه يتعامل معنا على وَفقَ حكمته لأنه حكيم عليم.. فلا ينبغي للمريض أن يتَّهم حكمةَ الطبيب الذي يعالجه، إذ ربما يطلب منه أن يداويه بالعسل، فلا يعطيه الطبيب إلّا دواء مرًّا علقمًا، لعلمه أنه مصاب بالحمى. فلا يحق للمريض أن يقول: الطبيب لا يستجيب لدعائي، بل قد استمع لأناته وصراخه، وأجابه فعلًا، وبأفضل منه.

النكتة الرابعة

إنَّ أطيبَ ثمرة حاضرة يجنيها المرءُ من الدعاء وألذَّها، وإن أجملَ نتيجة آنية يحصل عليها المرء من الدعاء وألطفَها هي الآتي:

إنَّ الداعي يعلم يقينًا أن هناك من يسمعه، ويترحّم عليه ويسعفه بدوائه، وقدرتُه تصل إلى كل شيء. وعندها يستشعر في نفسه أنه ليس وحيدًا فريدًا في هذه الدنيا الواسعة بل هناك كريمٌ ينظر إليه بنظر الكرم والرحمة، فيدخل الأنسُ إلى قلب الداعي، ويتصور أنه في كنف الرحيم المقتدر على قضاء حاجاته غير المحدودة ودفع أعدائه غير المعدودة. وفي حضور دائم أمامه، فيغمره الفرحُ والانشراح، ويشعر أنه قد ألقى عن كاهله عبئًا ثقيلًا، فيحمد الله قائلًا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

النكتة الخامسة

إنَّ الدعاء روحُ العبادة ومخُّها، وهو نتيجة إيمان خالص، لأن الداعي يُظهر بدعائه أن الذي يهيمن على العالم كله ويطّلع على أخفى أموري ويحيط بكل شيء

علمًا هو القادر على إغاثتي وإسعاف أبعدِ مقاصدي وهو البصير بجميع أحوالي والسميع لندائي، لذا فلا أطلب إلّا منه وحده، فهو يسمع أصوات الموجودات كلها، ولا بد أنه يسمع صوتي وندائي أيضًا.. وهو الذي يدير الأمور كلها فلا أنتظر تدبير أدق أموري إلّا منه وحده.

وهكذا فيا أيها المسلم! تأمل في سعة التوحيد الخالص الذي يهبه الدعاءُ للمرء، وانظر مدى ما يظهره الدعاءُ من حلاوة خالصة لنور الإيمان وصفائه، وافهم منه حكمة قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ (الفرقان: ٧٧) واستمع إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠).. وإنه لحقٌّ ما قيل: (اگر نَه خُوَاهِي دَاد نَه دَادِى خُوَاه) أي: لو لم يُرِد القضاءَ ما ألهَم الدعاءَ.

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

اَللهمَّ صَلِّ عَلٰى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ مِنَ الْأَزَلِ إِلَى الْأَبَدِ عَدَدَ مَا فِي عِلْمِ الله وَعَلٰى آلِه وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ. سَلِّمْنَا وَسَلِّمْ دِينَنَا. آمينَ . وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمينَ.

❋ ❋ ❋

اللمعة الأولى

بين يدي سيدنا يونس عليه السلام

إنَّ مناجاة سيدنا يونس بن متّى -على نبينا وعليه الصلاة والسلام- هي من أعظم أنواع المناجاة وأروعِها، ومن أبلغِ الوسائل لاستجابة الدعاء وقبوله.[1]

تتلخص قصتُه المشهورة بأنه عليه السلام قد أُلقيَ به إلى البحر، فالتقمه الحوتُ، وغشيَتْه أمواجُ البحر الهائجةُ، وأسدل الليلُ البهيم ستارَه المظلمَ عليه. فداهَمَته الرهبةُ والخوف من كل مكان وانقطعت أمامَه أسبابُ الرجاء وانسدَّت أبوابُ الأمل.. وإذا بمناجاته الرقيقة وتضرعه الخالص الزكي: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٧) يُصبح

(١) انظر: الترمذي، الدعوات ٨١؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/ ١٧٠.

له في تلك الحالة واسطةَ نجاة ووسيلة خلاص.

وسرُّ هذه المناجاة العظيم هو أنَّ الأسباب المادية قد هَوت كليًا في ذلك الوضع المرعب، وسقطت نهائيًا فلم تحرّك ساكنًا ولم تترك أثرًا، ذلك لأنَّ الذي يستطيع أن ينقذه من تلك الحالة، ليس إلّا ذلك الذي تنفُذُ قدرتُه في الحوت، وتهيمن على البحر وتستولي على الليل وجوّ السماء؛ حيث إنَّ كلًّا من الليل الحالك والبحر الهائج والحوت الهائل قد اتفق على الانقضاض عليه، فلا يُنجيه سببٌ، ولا يخلّصه أحدٌ، ولا يوصله إلى ساحل السلامة بأمان، إلّا مَن بيده مقاليد الليل وزمام البحر والحوت معًا، ومَن يسخّر كلَّ شيء تحت أمره.. حتى لو كان الخلقُ أجمعين تحت خدمته عليه السلام ورهن إشارته في ذلك الموقف الرهيب، ما كانوا ينفعونه بشيء!.

أجل لا تأثير للأسباب قط.. فما إن رأى عليه السلام بعين اليقين أن لا ملجأ له من أمره تعالى إلّا

اللواذ إلى كنف مسبّب الأسباب، انكشف له سرُّ الأحدية من خلال نور التوحيد الساطع، حتى سخّرتْ له تلك المناجاةُ الخالصة الليلَ والبحرَ والحوتَ معًا، بل تحوّل له بنور التوحيد الخالص بطنُ الحوت المظلم إلى ما يشبه جوفَ غواصة أمينة هادئة تسير تحت البحر، وأصبح ذلك البحرُ الهائج بالأمواج المتلاطمة ما يشبه المتنزّه الآمن الهادئ، وانقشعت الغيومُ عن وجه السماء -بتلك المناجاة- وكشف القمرُ عن وجهه المنير كأنه مصباح وضيء يتدلى فوق رأسه..

وهكذا غدت تلك المخلوقاتُ التي كانت تهدّده وتُرعبه من كل صوبٍ وتضيّق عليه الخناق، غدت الآن تُسفر له عن وجه الصداقة، وتتقرب إليه بالودّ والحنان، حتى خرج إلى شاطئ السلامة وشاهدَ لُطفَ الرب الرحيم تحت شجرة اليَقطين.

فلننظر بنور تلك المناجاة إلى أنفسنا.. فنحن في

وضع مخيف ومرعب أضعاف أضعاف ما كان فيه سيدنا يونس عليه السلام، حيث إن:

ليلَنا الذي يخيّم علينا، هو المستقبل.. فمستقبلُنا إذا نظرنا إليه بنظر الغفلة يبدو مظلمًا مخيفًا، بل هو أحلك ظلامًا وأشد عتامة من الليل الذي كان فيه سيدنا يونس عليه السلام بمئة مرة.

وبحرَنا، هو بحر الكرة الأرضية، فكل موجة من أمواج هذا البحر المتلاطم تحمل آلاف الجنائز، فهو إذن بحر مرعب رهيب بمئة ضعف رهبةِ البحر الذي أُلقي فيه عليه السلام.

وحوتَنا، هو ما نحمله من نفس أمارة بالسوء، فهي حوت يريد أن يلتقم حياتنا الأبدية ويَمحَقَها. هذا الحوتُ أشد ضراوة من الحوت الذي ابتلع سيدَنا يونس عليه السلام؛ إذ كان يمكنه أن يقضي على حياة أمدُها

مئة سنة، بينما حوتُنا نحن يحاول إفناء مئات الملايين من سني حياة خالدة هنيئة رغيدة.

فما دامت هذه حقيقةَ وضعنا، فما علينا إذن إلّا الاقتداء بسيدنا يونس عليه السلام والسير على هديه، مُعرضين عن الأسباب جميعًا، مُقبلين كليًّا على ربنا الذي هو مسبّب الأسباب متوجهين إليه بقلوبنا وجوارحنا، ملتجئين إليه سبحانه قائلين: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مدركين بعين اليقين أنْ قد ائتمر علينا -بسبب غفلتنا وضلالنا- مستقبلُنا الذي يرتقبنا، ودنيانا التي تضمنا، ونفوسُنا الأمّارة بالسوء التي بين جنبينا، موقنين كذلك أنه لا يقدر أن يدفع عنا مخاوفَ المستقبل وأوهامه، ولا يزيل عنا أهوال الدنيا ومصائبها، ولا يُبعد عنا أضرار النفس الأمّارة بالسوء ودسائسها، إلّا مَن كان المستقبلُ تحت

أمره، والدنيا تحت حُكمه، وأنفسُنا تحت إدارته.

تُرى مَن غيرُ خالق السماوات والأرضين يعرف خلجات قلوبنا، ومَن غَيرُه يعلم خفايا صدورنا، ومَن غَيرُه قادر على إنارة المستقبل لنا بخلق الآخرة، ومَن غيرُه يستطيع أن ينقذنا من بين ألوف أمواج الدنيا المتلاطمة بالأحداث؟!. حاشَ لله وكلّا أن يكون لنا منجٍ غيرُه ومخلّصٌ سواه، فهو الذي لولا إرادتُه النافذة ولولا أمرُه المهيمن لَما تمكّن شيءٌ أينما كان وكيفما كان أن يمد يدَه ليغيث أحدًا بشيء!.

فما دامت هذه حقيقةَ وضعنا فما علينا إلّا أن نرفع أكفّ الضراعة إليه سبحانه متوسلين، مستعطفين نظرَ رحمته الربانية إلينا، اقتداءً بسر تلك المناجاة الرائعة التي سخّرت الحوتَ لسيدنا يونس عليه السلام كأنه غواصة تسير تحت البحر، وحوّلت البحرَ متنزّهًا جميلًا،

وألبَست الليلَ جلباب النور الوضيء بالبدر الساطع. فنقول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.. فنلفت بها نظرَ الرحمة الإلهية إلى مستقبلنا بقولنا: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ ونلفتها إلى دنيانا بكلمة: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ ونرجوها أن تنظر إلى أنفسنا بنظر الرأفة والشفقة بجملة: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. كي يعمّ مستقبلنا نور الإيمان وضياء بدر القرآن، وينقلب رعبُ ليلنا ودهشتُه إلى أمن الأُنس وطمأنينة البهجة. ولتنتهي مهمةُ حياتنا ونختتم وظيفتَها بالوصول إلى شاطئ الأمن والأمان دخولًا في رحاب حقيقة الإسلام، تلك الحقيقة التي هي سفينة معنوية أعدّها القرآن العظيم، فنبحر بها عباب الحياة، فوق أمواج السنين والقرون الحاملة لجنائز لا يحصرها العَدّ، ويقذفها إلى العدم بتبدل الموت والحياة وتناوبهما الدائبين في دنيانا وأرضنا.

فننظر إلى هذا المشهد الرهيب بمنظار نور القرآن الباهر، وإذا هو مناظر متبدّلة، متجددة، يُحَوِّل تجدُّدُها المستمر تلك الوحشة الرهيبة النابعة من هبوب العواصف وحدوث الزلازل للبحر إلى نظرٍ تقْطر منه العبرةُ، ويبعث على التأمل والتفكر في خلق الله. فتستضيء وتتألق ببهجةِ التجدد ولطافةِ التجديد. فلا تستطيع عندها نفوسُنا الأمّارة على قهرنا، بل نكون نحن الذين نقهرُها بما منَحنا القرآن الكريم من ذلك السر اللطيف، بل نمتطيها بتلك التربية المنبثقة من القرآن الكريم. فتُصبِح النفسُ الأمّارة طوعَ إرادتنا، وتغدو وسيلةً نافعة ووساطةَ خير للفوز بحياة خالدة.

الخلاصة: إنَّ الإنسان بما يحمل من ماهية جامعة يتألم من الحمّى البسيطة كما يتألم من زلزلة الأرض وهزّاتها، ويتألم من زلزال الكون العظيم عند قيام الساعة.

ويخاف من جرثومة صغيرة كما يخاف من المذنبات الظاهرة في الأجرام السماوية. ويحب بيتَه ويأنس به كما يحب الدنيا العظيمة. ويهوى حديقته الصغيرة ويتعلق بها كما يشتاق إلى الجنة الخالدة ويتوق إليها.

فما دام أمرُ الإنسان هكذا، فلا معبودَ له ولا ربَّ ولا مولَى ولا منجَى ولا ملجأ إلّا مَن بيده مقاليدُ السماوات والأرض وزمام الذرات والمجرات، وكل شيء تحت حُكمه، طوعَ أمره.. فلا بُدَّ أن هذا الإنسان بحاجة ماسة دائمًا إلى التوجّه إلى بارئه الجليل والتضرع إليه اقتداءً بسيدنا يونس عليه السلام. فيقول:

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

❊ ❊ ❊

يا باقي أنت الباقي

لقد مازجَ هذه اللمعة شيءٌ من الأذواق والمشاعر، فأرجو عدم تقييمها بموازين علم المنطق؛ لأن ما تجيش به المشاعر لا يراعي كثيرًا قواعد العقل ولا يعير سمعًا إلى موازين الفكر.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

(القصص: ٨٨)

هذه الآية العظيمة تفسرها جملتان تعبّران عن حقيقتين مهمتين بحيث اتخذهما قسمٌ من شيوخ الطريقة النقشبندية بمثابة زبدة الأوراد لديهم، يؤدون بهما ختمَتَهم الخاصة. والجملتان هما: «**يا باقي أنت الباقي. يا باقي أنت الباقي**».

ولما كانت هاتان الجملتان تنطويان على معان جليلة لتلك الآية الكريمة، فسنذكر بضعَ نكات لبيان الحقيقتين اللتين تعبّران عنهما:

النكتة الأولى

إن ترديد «**يا باقي أنت الباقي**» للمرة الأولى، يجرّد القلبَ مما سوى الله تعالى، فيُجري ما يشبه عمليةً جراحية فيه، ويقطعُه عما سواه سبحانه. وتوضيح هذا:

إنَّ الإنسان بما أودع الله فيه من ماهيةٍ جامعة يرتبط مع أغلب الموجودات بأواصرَ ووشائج شتى. ففي تلك الماهية الجامعة من الاستعداد غير المحدود للمحبة ما يجعله يكنّ حُبًّا عميقًا تجاه الموجودات عامة، فيحب الدنيا العظيمة كما يحب بيتَه، ويحب الجنةَ الخالدة كما يحب حديقته. بينما الموجودات -التي وجّه الإنسانُ

حبَّه نحوها- لا تدوم، بل لا تلبث أن تزول، لذا يذوق الإنسانُ دائمًا عذابَ ألم الفراق. فتصبح تلك المحبة التي لا منتهى لها مبعثَ عذابٍ معنوي لا منتهى له، لتقصيره بحقها. فالآلام التي يتجرعها ناشئةٌ من تقصيره هو، حيث لم يودَع فيه استعدادُ المحبة إلّا ليوجهه إلى مَن له جمال خالد مطلق. بينما الإنسانُ لم يُحسن استعمال محبته فوجّهها إلى موجودات فانية زائلة، فيذوق وبال أمره بآلام الفراق.

فعندما يردِّد الإنسان: «**يا باقي أنت الباقي**». يعني بها: البراءة الكاملة من هذا التقصير، وقطع العلاقات مع تلك المحبوبات الفانية، والتخلي عنها كليًّا، قبل أن تتخلى هي عنه. ثم تسديد النظر في المحبوب الباقي وهو الله سبحانه دون سواه.

أي يقول بها: «لا باقيَ بقاءً حقيقيًّا إلّا أنت يا إلهي.

فما سواكَ فانٍ زائل، والزائلُ غيرُ جدير بالمحبة الباقية ولا العشق الدائم، ولا بأن يُشدّ معه أواصر قلبٍ خُلِق أصلًا للأبد والخلود». وحيث إن الموجودات فانيةٌ وستتركني ذاهبةً إلى شأنها، فسأتركها أنا قبل أن تتركني، بترديدي: «**يا باقي أنت الباقي**». أي: أؤمن وأعتقد يقينًا أنه لا باقي إلّا أنت يا إلهي، وبقاءُ الموجودات موكول بإبقائك إياها، فلا يوجَّه إليها المحبةُ إذن إلّا من خلال نور محبتك، وضمن مرضاتك، وإلاّ فإنها غيرُ جديرة بربط القلب معها.

فهذه الحالة تجعل القلب يتخلى عن محبوبات كان يوليها محبةً لا حدود لها، حيث يبصر ختمَ الفناء ويشاهد طابعَ الزوال على ما أضفي عليها من جمال وبهاء. فتتقطع عندئذ تلك الوشائجُ التي كانت تربط القلب بالموجودات. وبخلاف هذا الأمر أي: إن لم

يتخلَّ القلبُ عن محبوباته فإن جراحاتٍ وآلامًا وحسراتٍ تتفجر من أعماقه بقدر تلك المحبوبات الفانية.

أما الجملة الثانية: «يا باقي أنت الباقي» فهي كالمرهم الشافي والبلسم الناجع يُمرَّر على العملية الجراحية التي أجرتها الجملةُ الأولى على القلب وروابطه، حيث إنها تعني: «كفى بك يا إلهي باقيًا. فبقاؤك بديلٌ عن كلِّ شيء.. وحيث إنك موجودٌ فكل شيء موجود إذن».

نعم، إنَّ ما يبدو على الموجودات من الحُسن والإحسان والكمال -والذي يبعث على محبتها- ما هو إلّا إشاراتٌ لحسنِ الباقي الحقيقي وإحسانه وكماله، وما هو إلّا ظلالٌ خافتة لذلك الحسن والإحسان والكمال نفذت من وراء حُجُب كثيرة وأستار عدة، بل هو ظِلالٌ لظلال تجليات أسمائه الحسنى جلّ جلالُه.

النكتة الثانية

في فطرة الإنسان عشقٌ شديد نحو البقاء، حتى إنه يتوهم نوعًا من البقاء في كل ما يحبه، بل لا يحب شيئًا إلّا بعد توهّمه البقاء فيه، ولكن حالما يتفكر في زواله أو يشاهد فناءه يطلق عليه الزفرات والحسرات من الأعماق.

نعم، إن جميع الآهات والحسرات الناشئة من أنواع الفراق، إنما هي تعابيرُ حزينة تنطلق من عشق البقاء. ولولا توهمُ البقاء لَمَا أحبّ الإنسانُ شيئًا.

بل يصح القول: إنَّ سببًا من أسباب وجود عالَم البقاء والجنة الخالدة هو الرغبةُ الملحّة للبقاء المغروزة في فطرة الإنسان، والدعاء العام الشامل الذي يسأله بشدة للخلود.. فاستجاب الباقي ذو الجلال لتلك الرغبة الملحة ولذلك الدعاء العام المؤثر، فخَلَق سبحانه

عالمًا باقيًا خالدًا لهذا الإنسان الفاني الزائل. إذ هل يمكن ألّا يستجيب الفاطرُ الكريم والخالق الرحيم لدعاء تسأله البشريةُ قاطبة بلسان حالها ومقالها، ذلك الدعاءَ الكليَّ الدائميَّ الحقَّ والخالصَ النابع من صميم حاجتها الفطرية ومن أعماق رغبتها الملحّة، مع أنه يستجيب لدعاء معدة صغيرة، تسأله بلسان حالها، فيخلق لها أنواعًا من الأطعمة اللذيذة ويُشبع بها رغبتها الجزئية للبقاء المؤقت؟ حاشَ لله وكلا.. ألف ألف مرة كلا. إنّ ردّ هذا الدعاء للخلود محالٌ قطعًا، لأن عدم استجابته جلّ وعلا ينافي حكمتَه الخالدة وعدالتَه الكاملة ورحمتَه الواسعة وقدرتَه المطلقة.

وما دام الإنسان عاشقًا للبقاء، فلا بُدَّ أنّ جميع كمالاته وأذواقه تابعةٌ للبقاء أيضًا. ولمّا كان البقاء صفةً خاصة للباقي ذي الجلال، وأن أسماءه الحسنى باقيةٌ،

وأن المرايا العاكسة لتجليات تلك الأسماء تنصبغ بصبغتها وتأخذ حُكمَها، أي تنال نوعًا من البقاء، فلا بُدَّ أنّ ألزمَ شيء لهذا الإنسان وأجلّ وظيفة له هو شدُّ الأواصر وربطُ العلاقات مع ذلك الباقي ذي الجلال والاعتصام التام بأسمائه الحسنى، لأن ما يُصرف في سبيل الباقي ينال نوعًا من البقاء.

هذه الحقيقة تعبّر عنها الجملة الثانية: «**يا باقي أنت الباقي**» فتُضمِّد جراحات الإنسان المعنويةَ الغائرة، كما تُطَمئِنُ رغبتَه الملحة للبقاء المودَعة في فطرته.

النكتة الثالثة

يتفاوت في هذه الدنيا تأثيرُ الزمان في فناء الأشياء وزوالها تفاوتًا كبيرًا. فمع أن الموجودات مكتنفةٌ بعضها ببعض كالدوائر المتداخلة، إلّا أن حكمَها من حيث الزوال والفناء مختلفٌ جدًا.

فكما أن دوائر حركة عقارب الساعة العادّة للثواني والدقائق والساعات تختلف في السرعة، رغم تشابهها الظاهري، كذلك الأمر في الإنسان، حيث إن حُكم الزمن متفاوتٌ في دائرة جسمه، ودائرة نفسه، ودائرة قلبه، ودائرة روحه. فبينما ترى حياةَ الجسم وبقاءه ووجودَه محصورةً في اليوم الذي يعيش فيه أو في ساعته، وينعدم أمامَه الماضي والمستقبلُ، إذا بكَ ترى دائرةَ حياة قلبِه وميدانَ وجوده يتّسع ويتسع حتى يضمّ أيامًا عدة قبل حاضره وأيامًا بعده، بل إنَّ دائرةَ حياة الروح وميدانَها أعظمُ وأوسع بكثير حيث تسع سنين قبل يومها الحاضر وسنين بعدَه.

وهكذا، بناءً على هذا الاستعداد، فإن عمرَ الإنسان الفاني يتضمن عمرًا باقيًا من حيث حياته القلبية والروحية تحيَيان بالمعرفة الإلهية والمحبة الربانية والعبودية السُبحانية والمرضيات الرحمانية، بل يُنتجُ هذا العمر

الباقيَ الخالد في دار الخلود والبقاء، فيكون هذا العمر الفاني بمثابة عمر أبدي.

أجل، إنَّ ثانيةً واحدة يقضيها الإنسانُ في سبيل الله الباقي الحق، وفي سبيل محبته، وفي سبيل معرفته وابتغاء مرضاته، تُعدّ سنةً كاملة. بل هي باقيةٌ دائمة لا يعتريها الفناءُ. بينما سنةٌ من العمر إنْ لم تكن مصروفةً في سبيله سبحانه فهي زائلةٌ حتمًا، وهي في حُكم لحظة خاطفة، فمهما تَطُل حياةُ الغافلين فهي بمثابة لحظات عابرة لا تجاوز ثانية واحدة.

وهناك قول مشهور يدل على هذه الحقيقة:

«سِنَةُ الفِرَاقِ سَنَةٌ، وَسَنَةُ الوِصَالِ سِنَةٌ»

أي: إن ثانية واحدة من الفراق طويلةٌ جدًّا كأنها سَنةٌ واحدة، بينما سَنةٌ كاملة من الوصال تبدو قصيرة كالثانية الواحدة.

بيد أني أُخالف هذا القول المشهور فأقول: «إن ثانية

واحدة يقضيها الإنسانُ ضمن مرضاة الله سبحانه وفي سبيل الباقي ذي الجلال ولوجهه الكريم، أي: ثانيةٌ واحدة من هذا الوصال ليست كسَنة وحدها، بل كنافذة مُطلّة على حياة دائمة باقية. أما الفراقُ النابع من نظر الغفلة والضلالة فلا يجعل السَنةَ الواحدة كالثانية، بل يجعل ألوف السنين كأنها ثانية واحدة».

وهناك مثل آخر أكثر شُهرة من السابق يؤيد ما نقرِّره وهو:

أَرْضُ الفَلَاةِ مَعَ ٱلأَعْدَاءِ فِنْجَانُ
سَمُّ الخِيَاطِ مَعَ ٱلأَحْبَابِ مَيْدَانُ

أما إذا أردنا أن نبين وجهًا صحيحًا للمَثَل السابق فسيكون كالآتي:

إنَّ وصالَ الموجودات الفانية قصيرٌ جدًّا لأنه فانٍ، فمهما طال فهو يمضي في لمحة، ويغدو خيالًا ذا حسرة، ورؤيا عابرةً تورث الأسى. فالقلب الإنساني التوّاق للبقاء

لا يستمتع من سَنةٍ من هذا الوصال إلّا بمقدار ما في الثانية الواحدة من لذة. بينما الفراقُ طويل وميدانُه واسع فسيح، فثانيةٌ واحدة منه تستجمع ألوانًا من الفراق ما يستغرق سَنة كاملة، بل سنين. فالقلب المشتاق إلى الخلود يتأذى من فراق يمضي في ثانية واحدة، كأنه ينسحق تحت آلام فراق سنين عدة، حيث يذكّره ذلك الفراق بما لا يُعدُّ من أنواع الفراق. وهكذا فماضي جميع أشكال المحبة المادية والهابطة ومستقبلُها مليء بألوان من الفراق.

وللمناسبة نقول:

أيها الناس! أتريدون تحويلَ عمرِكم القصير الفاني إلى عمرٍ باقٍ طويل مديد، بل مثمر بالمغانم والمنافع؟

فما دام الجواب: أنْ نعم. وهو مقتضى الإنسانية، فاصرفوا إذن عمرَكم في سبيل الباقي، لأن أيّما شيء

يتوجه إلى الباقي ينَلْ تجلِّيًا من تجلياته الباقية.

ولما كان كل إنسان يطلب بإلحاح عمرًا طويلًا وهو مشتاق إلى البقاء، وثمة وسيلةٌ أمامه لتحويل هذا العمر الفاني إلى عمر باقٍ، بل يمكن تبديلُه إلى عمرٍ طويل معنًى، فلا بُدَّ أنه -إنْ لم تسقط إنسانيتُه- سيبحث عن تلك الوسيلة وينقّب عنها، ولا بدَّ أنه سيسعى حثيثًا لتحويل ذلك الممكن إلى فعل ملموس، ولا بدَّ أنه سيصبو إلى ذلك الهدف بأعماله وحركاته كافة.

فدونكم الوسيلة:

اعملوا لله، اتقوا لوجه الله، اسعوا لأجل الله. ولتكن حركاتُكم كلُّها ضمن مرضاة الله (لله.. لوجه الله.. لأجل الله) وعندها ترون أن دقائقَ عمركم القصير قد أصبحت بحكم سنين عدة.

تشير إلى هذه الحقيقة «ليلةُ القدر» فمع أنها ليلةٌ

واحدة إلّا أنها خيرٌ من ألف شهر -بنص القرآن الكريم- أي: في حُكم ثمانين ونيف من السنين.

وهناك إشارة أخرى إلى الحقيقة نفسها، وهي القاعدة المقررة لدى أهل الولاية والحقيقة، تلك هي «بسط الزمان» الذي يثبتُه ويُظهره فعلًا المعراجُ النبوي، فقد انبسطت فيه دقائقُ معدودة إلى سنين عدة، فكانت لساعات المعراج من السعة والإحاطة والطول ما لألوف السنين، إذ دخل ﷺ بالمعراج إلى عالم البقاء، فدقائقُ معدودة من عالم البقاء تضم ألوفًا من سني هذه الدنيا.

ومما يثبت حقيقة «بسط الزمان» هذا ما وقع من حوادث غزيرة للأولياء الصالحين، فقد كان بعضهم يؤدي في دقيقة واحدة ما يُنجَز من الأعمال في يوم كامل. وبعضهم أنجزوا في ساعة واحدة من المهمات ما يُنجَز في سنة كاملة، وبعضهم ختموا القرآن في دقيقة.

وهكذا فهذه الروايات عنهم وأمثالُها لا ترقى إليها الشبهات لأن الرواة صادقون صالحون يترفّعون عن الكذب، فضلًا عن أن الحوادث متواترةٌ وكثيرة جدًّا ويروونها روايةَ شهود. فلا شكَّ فيها. فبسطُ الزمان حقيقة ثابتة.(١) وهناك نوعٌ منه يصدّقه كلُّ الناس، وهو ما يراه الإنسان من رؤيا في المنام، إذ قد يرى رؤيا لا تستغرق دقيقة واحدة، بينما يقضي فيها من الأحوال ويتكلم من الكلام ويستمتع من اللذائذ ويتألم من العذاب ما يحتاج إلى يوم كامل في اليقظة وربما إلى أيام عدة.

حاصل الكلام: مع أن الإنسان فانٍ إلّا أنه مخلوق

---

(١) قال تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ (الكهف: ١٩) ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ (الكهف: ٢٥). فهاتان الآيتان الكريمتان تدلان على «طي الزمان» كما أن الآية الآتية تدل على «بسط الزمان»: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧). (المؤلف).

للبقاء. خَلَقه البارئ الكريم بمثابة مرآةٍ عاكسة لتجلِّياته الباقية، وكلّفه بالقيام بمهمات تثمر ثمارًا باقيةً، وصوّره على أحسن صورة حتى أصبحت صورتُه مدار نقوش تجلِّيات أسمائه الحسنى الباقية، لذا فسعادةُ هذا الإنسان ووظيفتُه الأساس إنما هي التوجّه إلى ذلك الباقي بكامل جهوده وجوارحه وبجميع استعداداته الفطرية، سائرًا قُدُمًا في سبيل مرضاته، متمسِّكًا بأسمائه الحسنى، مرددًا بجميع لطائفه -من قلب وروح وعقل- ما يردده لسانُه: «يا باقي أنت الباقي»:

هو الباقي، هو الأزلي الأبدي، هو السرمدي، هو الدائم، هو المطلوب، هو المحبوب، هو المقصود، هو المعبود.

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾

المقام الثاني من الكلمة السابعة عشرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ (الأنعام:٧٦)

لقد أبكاني نعيُ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ من خليل الله إبراهيم عليه السلام الذي ينعي به زوال الكائنات، فصبّت عينُ قلبي قطراتٍ باكيات على شؤون الله، كل قطرة تحمل من الحزن والكمد ما يثير الأشجان ويدفع إلى البكاء والنحيب. تلك القطرات هي هذه الأبيات التي وردت إلى القلب بالفارسية.. وهي نمط من تفسير لكلام خليل الرحمن ونبيه الحكيم كما تضمنته الآية الكريمة: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾.

نَمِي زِ يبَاسْت «أُفُولْدَه» كُمْ شُدَن مَحْبُوبْ

محبوب، يغرق في أفق المغيب! ليس بمحبوب جميل، فالمحكوم عليه بالزوال لن يكون جميلًا حقًّا ولا يحبه القلب، إذ القلب الذي خلق أصْلًا ليعشق خالدًا، ويعكس أنوارَ الصمد، لا يود الزوال ولا ينبغي له.

نَمِي أَرْزَدْ «غُرُوبْدَه» غَيْب شُدَنْ مَطْلُوبْ

مطلوب، محكوم عليه بالأفول! ليس أهلًا أن يرتبط به القلب، ولا يشد معه الفكر؛ لأنّه عاجز عن أن يكون مرجعًا للأعمال وموئلًا للآمال. فالنفس لا تذهب عليه حسرات، أتراك يعشقه القلب أوْ يُنشده ويعبده؟.

نَمِي خَواهَمْ «فَنَادَه» مَحو شُدَنْ مَقْصُودْ

مقصود، يُمحى في الفناء ويزول! لا أريده. أنا لا أريد فانيًا، لأنّي الفاني المسكين، فماذا يُغني الفانون عني؟

نَمِي خَوانَمْ «زَوَالْدَه» دَفْن شُدَنْ مَعْبُودْ

معبود، يدفن في الزوال! لا أدعوه، ولا أسأله، ولا ألتجئ إليه، إذ من كان عاجزًا لا يستطيع حتمًا أن يجد

دواءً لأدوائي الجسيمة ولا يقدر على ضماد جراحاتي الأبدية، فكيف يكون معبودًا من لا يقدر على إنقاذ نفسه من قبضة الزوال؟

عَقْل فَرْيَادْ مِى دَارَدْ، نِدَاءِ ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾
مِى زَنَدْ رُوحْ

أمام هذه الكائنات المضطربة المنسابة إلى الزوال، يصرخ «العقل» المفتون بالمظاهر يائسًا من الأعماق، كلَّما رأى زوال معشوقاته.. وتئنّ «الروح» الساعية إلى محبوب خالد أنين ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾.

نَمِي خْواهَمْ نَمِي خْوانَمْ نَمِي تَابَمْ فِرَاقِي

لا.. لا أريد الفراق.. لا.. لا أطيق الفراق.

نَمِي أَرْزَدْ «مَرَاقَه» اِيْنْ زَوَالْ دَرْ پَسْ تَلاقِي

وصال يعقبه الزوال مؤلم، هذه اللقاءات المكدرة بالزوال غير جديرة باللهفة، بل لا تستحق شوقًا؛ لأنّ

زوال اللذة مثلما هو ألم، فإن تصور زوال اللذة كذلك ألم مِثْلُه، فدواوين جميع شعراء الغزل والنسيب -وهم عشاق مجازيون- وجميع قصائدهم إنّما هي صراخات تنطلق من آلام تنجم من تصور الزوال هذا، حتى إذا ما استعصرتَ روح ديوان أيٍّ منهم فلا تَراها إلّا وتقطر صراخًا أليمًا ناشئًا من تصور الزوال.

اَزْ آنْ دَرْدِى كِرِين ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾
مِى زَنَدْ قَلْبَمْ

فتلك اللقاءَات المشوبة بالزوال، وتلك المحبوبات المجازية المورثة للألم، تعصر قلبي حتى يجهش بالبكاء قائلًا: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ على غِرار سيدنا إبراهيم عليه السلام.

فإن كنتَ طالبًا للبقاء حقًّا، وأنت ما زلتَ في الدنيا الفانية فاعلمْ:

دَرْ اِيْن فَانِى بَقَا خَازِى بَقَا خِيزَدْ فَنَادَنْ

إنّ البقاءَ ينبثق من الفناء، فجُدْ بفناء النفس الأمارة لتحظى بالبقاء!

فَنَا شُدْ، هَمْ فَدَا كُنْ، هَمْ عَدَمْ بِينْ، كِه اَزْ
دُنْيَا «بَقَايَه» رَاهْ «فَنَادَنْ»

تجرَّدْ مِن كلِّ خُلُقٍ ذميم هو مبعث عبادة الدنيا. أفنِهِ عن نفسك، جُدْ بما تملكه في سبيل المحبوب الحق. أبْصِرْ عُقبى الموجودات الماضية نحو العدم؛ فالسبيل في الدنيا إلى البقاء إنّما تمر من درب الفناء.

فِكْرِ فِيزَارْ مِى دَارَدْ، اَنِينِ ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾
مِى زَنَدْ وِجْدَانْ

ويظل «فكر» الإنسان السارح في الأسباب المادية في حيرة وقلق أمام مشهد زوال الدنيا، فيستغيث في قنوط. بينما «الوجدان» الذي ينشد وجودًا حقيقيًّا يتبع خُطى سيدنا إبراهيم عليه السلام في أنينه: ﴿لَآ أُحِبُّ

ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ ويقطع أسبابه مع المحبوبات المجازية ويحل حباله مع الموجودات الزائلة، معتصمًا بالمحبوب السرمدي.. بالمحبوب الحقيقي.

بِدَانْ اَیْ نَفْسِ نَادَانَمْ! كِه: دَرْ هَرْ فَرْد اَزْ
فَانِى دُو رَاهْ هَسْت بَا بَاقِى، دُو سِرِّ جَانْ جَانَانِى

فيا نفسي الغافلة الجاهلة! يا سعيدُ! اعلمْ أنّك تستطيع وجدانَ سبيلين إلى البقاء من كل شيء فانٍ في هذه الدنيا الفانية، حتى يمكنك أن تُشاهد فيهما لمعتين وسرّين من أنوار جمال المحبوب الدائم، فيما إذا قدرت على تجاوز الصورة الفانية وخرقت حدود نفسك.

كِه دَرْ نِعْمَتْهَا إِنعَامْ هَسْت وَ پَسْ آثَارهَا اَسْمَا
بِگِيرْ مَغْزِى، وَ مِيزِنْ دَرْ فَنَا آنْ قِشْرِ بِى مَعْنَا

نعم، إنّ الإنعام يشاهَد طَيَّ النعمة، ولطف الرحمن يُستشعر في ثنايا النعمة. فإن نَفَذتَ من خلال النعمة إلى رؤْية الإنعام فقد وجدتَ المُنعِمَ.

ثم إنّ كُلَّ أثَرٍ من آثار الأحد الصَّمد إنّما هو رسالته المكتوبة. كلّ منه يبيّن أسماء صانعه الحسنى. فإن استطعتَ العبور من النقش الظاهر إلى المعنى الباطن فقد وجدتَ طريقًا إلى الأسماء الحسنى من خلال المسمَّيات. فما دام في وُسْعِكِ -يا نفسي- الوصولُ إلى مغزى هذه الموجودات الفانيات ولبّها، فاستمسكي بالمعنى، ودعي قشورها يجرفها سيل الفناء، مزّقي الأستار دون حسرة عليها.

بَلِى آثَارَهَا گُويَنْد: ز اَسْمَا لَفْظِ پُرْ مَعْنَا بِخَوانْ مَعْنَا،
وَ مِيزَنْ دَرْ هَوَا آنْ لَفْظِ بِى سَوْدَا

نعم، ليس في الموجودات من شيء إلّا هو لفظ مجسم يفصح عن معانٍ جليلة، بل يستقرئُ أغلبَ أسماءِ صانعه البديع. فما دامت هذه المخلوقات ألفاظَ القدرة الإلهية وكلماتِها المجسدة، فاقرئيها -يا نفسي- وتأملي

في معانيها واحفظيها في أعماق القلب، وارمي بألفاظها التافهة أدراج الرياح دون أسف عليها.. ودون انشغال بها.

عَقْل فَرْيَادْ مِى دَارَدْ، غِيَاثِ ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾
مِيزَن اَىْ نَفْسَمْ

والعقل المبتلى بمظاهر الدنيا ولا يملك إلّا معارف آفاقية خارجية، تَجرُّهُ سلسلة أفكاره إلى حيث العدم وإلى غير شيء. فتراه يضطرب في حيرته وخيبته؛ فيصرخ يائسًا جزعًا، باحثًا عن مخرج من هذا المأْزق ليبلغه طريقًا سويًّا يوصله إلى الحقيقة.

فما دامت الروح قد كَفَّتْ يدها عن الآفلين الزائلين، والقلب قد ترك المحبوبات المجازية، والوجدان قد أعرض عن الفانيات.. فاستغيثي يا نفسي المسكينةُ بغياث إبراهيم عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ وأنقذي نفسَك.

چِه خُوشْ گُويَدْ اُو شَيْدَا «جَامِى» عَشْقِ خُوىْ:

وانظري! ما أجمل قول «جامي» ذلك الشاعر العاشق الولهان؛ حتى لكأنّ فطرته قد عُجِنَتْ بالحب الإلهي حينما أراد أن يولي الأنظارَ شطرَ التوحيد ويصرفها عن التشتت في الكثرة.. إذ قال:

يَكِي خواهْ، يَكِي خَوانْ، يَكِي جُوىْ، يَكِي
بِينْ، يَكِي دَانْ، يَكِي كُوىْ[1]

أقصدْ الواحدَ، فسِواه ليس جديرًا بالقصد.

أدعُ الواحدَ، فما عداه لا يستجيب دعاء.

أطلب الواحدَ، فغيره ليس أهلًا للطلب.

شاهِدْ الواحدَ، فالآخرون لا يشاهَدون دائمًا، بل يغيبون وراء ستار الزوال.

أعرف الواحدَ، فما لا يوصل إلى معرفته لا طائل من ورائه.

---

(١) هذا البيت لمولانا جامي. (المؤلف)

أذكر الواحدَ، فما لا يدل عليه من أقوال وأذكار هراء لا يُغني المرءَ شيئًا.

نعم، صدقت أي «جامي»:

كِه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بَرَابَرْ مِيزَنَدْ عَالَمْ

هو المطلوب، هو المحبوب، هو المقصود، هو المعبود.

فالعالم كلُّه، أشبَهُ بحلقة ذكرٍ، وتهليلٍ كبرى يردِّد بألسنته المتنوعة ونغماته المختلفة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ويشهد الكل على التوحيد، فيداوي به الجرح البالغ الغور الذي يفجره: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ وكأنّه يقول: هيَّا إلى المحبوب الدائم الباقي.. اُنفضوا أيديكم من كل محبوباتكم المجازية الزائلة.

* * *

الفهرس

مرقاة السنة وترياق مرض البدعة ٥

السراج المنير ٤٦

حكمة الأعداد غير المتناهية............................. ٥٢

إلى المتكاسل في أذكار الصلاة ٦١

وهذه خاطرة جميلة ٦٤

الدعاء مخ العبادة ٦٩

بين يدي سيدنا يونس عليه السلام ٨٣

يا باقي أنت الباقي..................................... ٩٢

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ ١٠٨